عمرو" على أي حال، كانت امرأة ليست كأي امرأة، كانت امرأة مدهشة بكل المقاييس، ولأن المقاييس تختلف ما بين الرجل والمرأة شكلا لا موضوعا فإن المواضيع التي تتناول المرأة توضع في مقاييس الرغبات، ولأن الرغبة هي أن تبقى المرأة في الحيز "اللاعقلاني" فهي حيوية فقط في الحيز العاطفي "هكذا وضعوا" والقول الفصل: لو تساوت المعطيات الثقافية التي تميز بين ذكر وأنثى في التعامل فسنجد أنهم يتعاملون بمنطق مزدوج، يشوه ويزيف، ما يجيش في نفس البنت أو في نفس الولد، من رغبات إنسانية لا تتعارض مع جنسه أو تكوينه الإنساني العقلاني. إنهم يقولبون الماء فيصبح ثلجا.

إذن الزياء عقل تهيأ له القفز فوق السياجات الانتقائية فحلق في فضاء الإبداع قبل أن تصطاده بنادق الفكر الجنساني المهيمن!!

لقد أبدعت هذه المرأة، مثل أي قائد شجاع مثقف، حلقت في فضاء الحكمة والشجاعة، لم يمنعها جنسها ولا شكلها الجميل من ممارسة الفروسية واتخاذ القرارات فأبدعت![1].

آسية:

ومن تدمر إلى مصر نرحل سويا يا أيها الرجل من جنوب الأرض لنؤكد، مرة أخرى، أن لها، أعني المرأة، أن تتخذ القرار

(1) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحاله صفحة: 131. وأعلام النساء زينب العاملي صفحة: 357.

وحدها وتنفذه، غير خاضعة لأحد كائنا من كان، فهي المسئولة عن نفسها، ولقد أيدها نور السماوات والأرض في ذلك، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] لقد رفضت أمتع مكان تجد فيه المرأة، أو غير المرأة، كل ما تشتهي لأنها ترفض أن تقاد إلى ذل الحياة المادية التي لم تنعش روحها الباحثة عن الحياة الأخرى التي آمنت بها، إنها الآن امرأة أعظم ملوك الأرض، ولكنها رأت البعيد، فهفت نفسها الكريمة إليه، آسية امرأة فرعون ملكت إرادتها الحرة فكرمها الله بذكرها في كتابه، إنها الإرادة الحرة الكريمة وعدم الركون إلى القريب الملموس، هل من معترض على العقل الحكيم؟

رفضت ملك مصر العظيمة وهيلمان الملك لأنها رأت بعقلها الواعي وأرادت مُلكا أعظم وأجمل: بيتا دائما في الجنة، ذلك هو ما أرادته، حييت يا آسية بتحية الإسلام والعزة التي لا تنحني.

كليوباترا الملكة الأسطورية:

حواء في مصر، استطاعت في كثير من الفترات أن تكون بؤرة الضوء، ولم يخف هذا الضوء وجود ملوك تقشعر لحكمهم الجيوش والأبدان، وكليوباترا الملكة الأسطورية كانت خير مثال، كليوباترا كانت من سلالة البطالمة المعروفين بحبهم لسفك الدماء،

(1) سورة التحريم آية: 11.

فبطليموس الأول اسمه (سوتر) ومعناها منقذ شعبه، وهذا الحاكم كان مشهورا بإطاحته لكثير من الرؤوس وإسالته أنهارا من الدماء، وبطليموس الثاني واسمه فيلادلفوس ومعناها رجل الحب الأخوي، قتل اثنين من أخوته، وبطليموس الحادي عشر، واسمه النافخ في المزمار لأنه كان يشترك في المسابقات التي تجري في نفخ المزمار وهو قد أطلق على نفسه "فليوباتور أي محب أبيه، ولقب "فيلوماتور" أي محب أمه، هذا هو والد كليوباترا، قتل ابنته برينيس وكان محبا للفنون وعازفا، وقد ألف مرثاة، تتلى في جنازة تلك الابنة القتيلة وهي أخت كليوباترا.

ومن عائلتها أيضاً بطليموس الرابع عشر قتل أمه وعمه، وبطليموس السابع واسمه المحسن المتفضل، قتل جماعات من الشعب كي يعلم البقية كيفية احترام مليكهم!!

كانت كليوباترا امرأة لا تقاوم، متألقة ذكاء وفتنة، وعالمة باللغات اليونانية والمصرية والآسيوية وكان لها علم بالكيمياء، بل وهذا من الأشياء المبهرة في هذه الشخصية أن وجد لها بحث علمي حمل اسم "رسالة كليوباترا في السموم"!!، لقد كانت هذه المرأة مثقفة ثقافة عالية وإدارية ماهرة، وكان يحتويها ظمأ شديد إلى المجد والسلطان، كانت محاولاتها لا تقف عند حد في السيطرة على ما حولها ولهذا استأثرت بالعرش متجاوزة أخيها الذي هو زوجها والذي هو أيضاً أصغر منها، فقد كانت في السابعة عشرة، وكان هو في الثالثة عشرة، واستأثرت بالحكم فقاومها رجال

البلاط، وأوصياء زوجها القاصر، وأراد هو أن يمارس هواية آبائه وأجداده، في سفك الدماء، ولكنها انتصرت عليهم، وقاومت أيضا أطماع القياصرة الرومانيين بكل بسالة في بلدها، بل أرادت أن تكون روما التي سيطرت على العالم القديم تحت سيطرتها هي، وقد فعلت ذلك، عن طريق شخصيتها الأخاذة، واختطاف قلب وعقل قيصر روما الملك أنطونيوس، الذي انتصر على بمبي، الذي كان من أعظم قواده وكان قد اتفق معه على أن يقاوموا أي تشريع لا يرضى عنه أي واحد منهما، لقد اتفق بمبي أن يساعد قيصر في أن ينتخب قنصلا، كما تعهد قيصر إذا ما اختير لهذا المنصب أن ينفذ الاقتراحات التي عرضها بمبي، ورفضها مجلس الشيوخ - يبدو أن مجلس الشيوخ منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا كان ضنينا حقودا، لأنه في ذلك الوقت رفض أن يقسم الأرض على الجنود ولم يقر الاتفاقات التي عقدها مع الملوك المغلوبين مثل هذا الوقت - نعود إلى قيصر الذي ما كاد يتسلم مقاليد منصبه حتى عرض على مجلس الشيوخ المطالب التي تقدم بها بمبي: وهي توزيع الأرض على عشرين ألفا من المواطنين الفقراء ومنهم جنود بمبي، والتصديق على الاتفاقات التي عقدها بمبي في بلاد الشرق، وتخفيض المبالغ التي تعهد الملتزمون بجمعها من ولايات آسية بمقدار ثلثها"[1].

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس صفحة: 350.

اتفق القائدان بمبي وكراسس بأن يكون بمبي واليا على أسباني، وكراسس على سوريا لمدة خمس سنوات وأن يظل قيصر واليا على غالة خمس سنين أخرى، وأمد قيصر صديقيه بما يلزمهما من الأموال لخوض المعركة الانتخابية، نجح الاثنان وتفرغ قيصر لحروبه فغزا المانيا وهزم البريطانيين وتفرقت جيوشه في أماكن شاسعة، وانحطت السياسة في السنوات الخمس الثانية من ولايته فقد كان القنصلان بمبي وكراسس يبغي كلاهما أن يكون الحاكم بأمره، فكانت الأحكام القضائية، ومناصب الدولة وعروش الملوك الخاضعين لسلطان روما تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان ـ ما أشبه الليلة بالبارحة ـ استهوت رائحة المال أحط الطبقات، فهرعت إلى روما، وأصبحت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ـ هكذا يعترف التاريخ وسوف يعترف ـ فكان كل من يقبل الاقتراع كما يطلب منه يؤذن له بدخولها، سواء كان من مواطني روما أو من غيرها!!

دب الخلاف وسادت الفوضى فجاء بمبي بجنوده وأخمد الثورة العارمة، ثم طلب إلى المجلس أن يعينه "قنصلا بغير زميل" وهي عبارة أخف من ديكتاتور، ثم عرض بمبي عدة اقتراحات منها إلغاء حق الترشح لمنصب القنصل وهو غائب عن روما ـ وكان هذا قد منح لقيصر ـ وأخذ يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية وعلى أعمال المحاكم، واستسلمت عناصر الثروة والنظام كلها في عاصمة البلاد إلى ديكتاتورية بمبي"[1] ظن بمبي أنه ملك كل شيء ولكنه

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس صفحة: 368.

أبدا لم يملك القلوب التي أحبت قيصر، حاول قيصر أن يسترضي بمبي ولكنه فشل لأن جيوش بمبي كانت أكثر عدداً، لن أتتبع انتصارات قيصر ولكننا سوف نقرأ عن بمبي الذي هرب من انتصارات قيصر إلى الإسكندرية الذي وصلها فوجد فيها بوثينس الذي بأمر من بطليموس الثاني عشر، أخو كليوباترا، أراد أن يقتله، لقد لقي القائد بمبي طعنة نجلاء حين وطئت قدماه شاطئ الإسكندرية وقطع رأسه ليهديه إلى القيصر[1].

بوثينس هذا نصب نفسه نائباً عن بطليموس ليحكم مصر باسمه وحرض الملك الصغير على أخته كليوباترا التي ذهبت سرا لمقابلة القيصر، وذهل القائد الروماني حين رآها، لقد أسرته شجاعتها وسرعة بديهتها، لقد أصلح بينها وبين بطليموس كما كانا من قبل، حاول بوثينس والقائد المصري أخلاس أن يقتلا قيصر ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التي كانت معه، فتحصن قيصر في القصر الملكي، ثم قرر أن يحرقه تمويها فحرقت معه مكتبة الإسكندرية، اضطر قيصر في إحدى المعارك أن يسبح في البحر وقد قذف به وبأربع مائة من رجاله، وظن بطليموس الثاني عشر أن الثوار قد حالفهم الحظ فخرج من قصره وانضم إلى الجنود المهاجمين، ومنذ تلك اللحظة سقط من ثوب التاريخ الممزق.

ظلت كليوباترا الحاكمة الفعلية لمصر رغم وجود أخيها الأصغر الذي عينه القيصر ملكاً معها[2].

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس صفحة: 380.
(2) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس صفحة: 383.

لقد دعاها إلى طرطوس فذهبت في الوقت الذي اختارته وعلى الطريقة التي اختارتها، ذهبت في قارب ذي أشرعة أرجوانية وسكان مذهب ومجاديف من فضة، تنساب في الماء على أنغام الناي والمزامير، وصلت إلى طرطوس وكانت وصيفاتها هن البحارة، يلبسن زي حوريات البحار وتلبس زي (فينوس)، استقبلت القائد الذي كان يريد لومها على ما فعلت مع أخيها الصغير، فقدمت الهدايا وابتسامتها الأخاذة، فكان الرد، أن أهدى لها فينيقيا سوريا وقبرص وأجزاء أخرى من البلاد العربية، دعته إلى الإسكندرية فأجاب الدعوة، ليقضي في تلك المدينة شتاء يملأه الحب وتثريه محاضرات في العلم والثقافة، كليوباترا كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها روما الشرهة القوية وأن السبيل لنجاة بلادها وعرشها هي أن تتزوج بسيد روما، ولقد حاولت قبل ذلك مع قيصر وهي تفعل الآن مع أنطونيوس، الذي كان يحلم أن يحقق الحلم القديم وهو توحيد روما ومصر، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الجميل الفتان، وبينما كان أنطونيوس يعيش الحلم كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيوس يتآمران مع أكتافيان ليسقطاه وينتزعا سلطانه على روما، لقد طلق هذه الزوجة، وتزوج كليوباترا التي أنجب منها قيصرون ـ قتله أكتافيا ـ كانت كوامن الحقد التي تملأ قلب أكتافيا أم فلفيان زوجته التي طلقها، تؤكد لأكتافيان أنه هو وإطاليا جميعا مقضي عليهم إذا نجح أنطونيوس وكليوباترا في خططهما فأخذ يعمل على أن تدرك إطاليا أن أنطونيوس قد تزوج ملكة مصر، وأنه قد منحها هي وأطفالها أكثر ولايات

الإمبراطورية خراجا، وأنه سيضع روما وإيطاليا كلها في المقام الثاني بعد مصر.

لقد أوغر أكتافيان على أنطونيوس صدور كثير من الرومان وخاصة مجلس الشيوخ الذي كان قد أرسل له أنطونيوس رسالة يقترح فيها أن يعتزل هو وأكتافيان الحياة العامة، وأن تعود جميع النظم الجمهورية إلى سابق عهدها، هذا الرجل الحقود لجأ إلى أساليب الخداع التي هي من أخص خصائصه، فأعلن الحرب على كليوباترا لا على أنطونيوس ليجعلها حرباً مقدسة في سبيل إطاليا.

سمعت كليوباترا وأنطونيوس استعدادات أكتافيان للحرب فشجعته كليوباترا على رد الغدر وفي سبيل السلطة العليا، وساعدته هي على حشد أسطول وجيش، وأقسمت له بقسمها المحبب إليها، أنها واثقة من النصر وثوقها بأنها ستتولى الحكم في الكابتول يوما من الأيام، وأبحر أسطول أنطونيوس وكليوباترا، وكان مؤلفا من خمسمائة سفينة حربية، ولم يكن قد ظهر أسطول بهذه القوة من قبل في البحار، وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلاثمائة ألف من المشاة واثني عشر ألفا من الفرسان، أمدهما بمعظم أمراء الشرق وملوكه، يرجون من وراء ذلك أن تكون هذه الحرب وسيلة للتحرر من نير رومة. وعبر أكتافيان البحر الأدرياتيكي بأربعة وأربعمائة سفينة وثمانين ألف جندي من المشاة واثني عشر من الفرسان وكانت الحرب الرهيبة التي استخدم فيها أكتافيان الحقد والأكاذيب وانهزم أنطونيوس وهزمت في أحلامها كلوباترا.

وظلت صرخات شيشرون تنبئ أن التاريخ يلوث بأحبار تمزج بالكذب الملوث، إذ كيف لهذه الملكة الشرقية أن تحصل على لقب ملكة الملوك، لقد فعلت ذلك بسيطرتها على قلب وعقل القائد أنطونيوس؟

هذه كليوباترا المرأة، الملكة، إن علاقة هذه الملكة، وزواجها من قيصر روما لم يسئ إلى بلدها الحبيب مصر بل أضافت إليه، قبرص، وسوريا، وليبيا وتمكنت من جعل الوطن يتمتع بالحرية والاستقلال، حتى انتهاء حياتها الحافلة بالدهاء، وبالحب، والأساطير على يد ابن زوجها بالتبني القائد أكتافيان الذي حقد عليها وعلى أنطوان وانتصر بطرق رومانية فيها الكثير من الغش والخداع والنزال الميكيافيللي غير الشريف، الذي لم يمنعها بأن تطلق صرختها الشهيرة قبل أن تمد يدها إلى ثعبان الصل، ليقذف السم إلى داخل جسدها الجميل: "أبدا لن يجبرني أحد على أن أمثل في موكب نصره"، هذه المرأة الملكة ظل كثير من كتاب الحضارة الغربية يشنون عليها وعلى الإمبراطور الروماني أنطوان الحملات الساخطة حتى وقتنا الحاضر، لقد كتبوا بأن هذا الأنطوان قد أذل الرومان لأنه كان لا يتردد في ترك أهم الجلسات في التريومفير أو مجلس الشيوخ عندما يحضر نداء منها، بل قالوا إنه في أحد الأيام، وكان يحضر مرافعة في قضية مهمة على فورم إحدى المدن الآسيوية مرت كليوباترا محمولة على عرش من ذهب فتركهم مزروعين ولحق بالحبيبة يمشي على قدميه بجانبها ولم

يكتفوا، بل كتبوا و قالوا إن العاشق المحب أنطوان قدم لكليوباترا حرساً خاصاً من الجنود الرومانيين يحملون تروساً كتب على كل منها اسماهما المتعانقان، كيف هذا وهي امرأة بربرية؟!

هم يقولون وليس كل ما قالوا حقيقة.

يقول كاتبهم شيشرون: "كل الشر إنما يأتي من الإسكندرية"[1] لقد ملأهم الغيظ من تلك التي هام بها قائدهم الذي منحها مكتبة برغام التي تضم أكثر من مائتي ألف كتاب تعويضا منه عن حريق مكتبة الإسكندرية الذي تم في زمن مضى، يقول كاتب نسي المترجم أن يضع على الكتاب اسمه، "أعني اسم الكاتب" في كتاب "كليوباترا وعصرها" وقد ترجمه يوسف شلب الشام منشورات دار علاء الدين: "إننا يمكن أن نصدق ذلك: فلم لا يكون أنطوان كريما بأشياء لا تخصه ولا يفهم منها من جهة أخرى شيئاً، بينما كان لكليوباترا تجاهها حس مرهف وأكثر ثقافة مما كان يملكه هو من حس"[2]؟

اعتراف تاريخي ليس برغبة الاعتراف ولكنه حنق من الرجل الكاتب للتاريخ الذي لم يستطع أن يواجه القوة المعنوية لمرأة وهبت الكياسة والحذق ووهبت الحس القيادي، هل نلوم التاريخ الذي مزقوا منه عمدا بعض أرديته فسقطت منه بعض النجوم التي أرادوا أن يخفوها؟

(1) شيشرون هذا كاتب متقلب يذهب في كتاباته ومواقفه السياسية مع من غلب، سمي بالتلراني لأنه يشبه في أخلاقه السياسي الفرنسي الشهير بتلران الذي توفي في 1838.

(2) كليوباترا وعصرها منشورات دار علاء الدين ترجمة يوسف شلب الشام: مروج الذهب للمسعودي.

لا بأس عليك أيها التاريخ فالكثير ظل هناك مخفياً!!

عودة إلى بدء:

معرفة ما يصلح المجتمع وفرض الرأي الحكيم بسلاسة وحكمة.. تلك هي السياسة.

وغاية السياسة، هي جمع البشر في عمل جماعي لممارسة الحياة الفطرية بنظام مدني إنساني، هذا النظام المفترض.

هذا النظام لا يرفض فطرية الإنسان ولا يستعير فطرية الحيوان، فالإنسان ميزه الله على مخلوقاته الأخرى بأشياء كثيرة، منها العقل الذي وهبه له في المطلق ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[1] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾[2] أؤمن بهذا إيمانا مطلقا ولا تعنيني توصيات "نيقولا مكيافللي" وكتابه "الأمير" الذي حشاه بكل ما هو احتقار للبشر وأعلن فيه أن الغاية تبرر الوسيلة.

سوف نقرأه، سوياً، أو ندخل في بعض ردهاته المطلية باللون المعتم.

وقبل أن ندخل في ردهات هذا الكتاب أو هذا المنحنى الذي سقط فيه الكثيرون من الذين اقتنعوا بآرائه الشيطانية، لنعترف أن لكل عمل غاية مُرادة، ولا بد لتحقيقها من وسيلة أو وسائل تعددت أو قلت، إذن يسأل سائل: ما الغاية من وضع هذا الكتاب (لا أعني

(1) يونس: 14.
(2) يونس: 13.

بطبيعة الحال كتاب الأمير لنيقولا مكيافللي)، وإنما أعني هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ وما الوسيلة لتحقيقه؟

الغاية تتبرأ!!

في الحقيقة إن الغاية من وضع هذا الكتاب: هو إثبات أن المرأة ليست طارئة على السياسة، ففي واقع الأحداث سابقا ولاحقا كانت المرأة وسط السياسة منذ وضعت السياسة، فالرجل لا يعيش وحده على هذه الأرض ولا يوجد رجل دون امرأة، فالسياسة تحكمهما سويا، تكون خلف أو أمام، فالطريق واحدة، تتسارع الخطى في منحنى وتتباطأ في منزلق يخاف منه السقوط.

إذن الغاية علمناها، وهي تتبرأ من مبدأ ميكيافللي، فما هي الوسيلة؟

وهل ستبرر لنا غايتنا اتباع كل الوسائل للفوز بغايتنا؟.. أعوذ بالله وهو الحق، فلغايتي أعد صادقة، إني سوف أتبع الحق مهما أتعبني الطريق ومهما تعددت مسالكه.

سوف أكون رفيقة صادقة رغم رفض رفيقنا في هذه الحياة!!

لن أتبع تعليمات "نيقولا ميكيافللي" ولكن سيكون أول بدئي ونهايتي الحق، وأمامي استقراء التاريخ، ففيه أحداث رغم ضياع الكثير منه لا تزال تضيء الأوراق، تلك الأوراق التي أهيل عليها كثيراً من الغبار، لكن الغبار، رغم ضرره المؤكد لا يقتل، إنه مثل الرماد يخفي الجمر ولكن الويل لمن يطأه، سوف تتورم قدماه، ثم لا يعود للمشي السوي.

رجال التاريخ عندما يكتبون ينسون أن التاريخ لا يموت وإن طعنوه في أحشائه فهو يظل لا يموت، منهكا يظل لكنه يصل.

إذن أمامي الأحداث تترى وأمامي التاريخ، وكتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لي أن أقرأه بتأن وموضوعية ولي أن أغوص في بحاره، ألتقط بعض المحارات التي لم يأتها التشويه ولن يأتيها مهما فعلوا، فما زالت زبرجدا وياقوتا، سوف أمر على أنهار وبحار وأهبط مغارات، لن أخاف النتوءات الجارحة، فلقد اعتدت على الجراح، ألست امرأة من بين جراحاتها تأتي الحياة؟

إن الولادة جرح يهب الفرح!

هل نعود إلى الغاية التي تبرر الوسيلة كما قررها المعلم (نيقولا مكيافللي)؟

هذه الغاية أباحت له أن يشكك في نوايا البشر ويتهمهم بالخبث وسوء النية!: يقول (نيقولا مكيافللي) في كتابه الأمير، في الباب السابع عشر: (وقد يقال عن الناس بصورة عامة، إنهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤون، ميالون إلى تجنب الأخطار، شديدو الطمع وهم إلى جانبك طالما أنت تفيدهم فسيبذلون لك دماءهم وحياتهم وأطفالهم وكل ما يملكون كما سبق لي أن قلت طالما أن الحاجة بعيدة نائية ولكنها عندما تدنو يثورون، ومصير الأمير الذي يركن إلى وعودهم دون اتخاذ أية استعدادات أخرى إلى الدمار والخراب (خرب الله بيت كل الميكيافلليين) إذ إن

الصداقة التي تقوم على أساس الشراء، لا على أساس نبل الروح وعظمتها، هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون أمينة موثوقة، وهي عرضة لأن لا تجدها في خدمتك، في أول مناسبة)[1] قال مكيافللي أيضاً: "ولا يتردد الناس في الإساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوبا بقدر ترددهم في الإساءة إلى من يخافونه إذ إن الحب يرتبط بسلسلة من الالتزام التي قد تتحطم بالنظر إلى أنانية الناس عندما يخدم تحطيمها مصالحهم بينما يتركز الخوف على الخشية من العقاب وهي خشية قلما تفشل"!

سبحان الله أين هذا من: (وأمرهم شورى بينهم)!

هذا المكيافللي يقول أيضاً: "على الأمير، ويقصد هنا، الزعيم أو القائد، أن لا يستهدف شيئا غير الحرب، تنظيمها وطرقها وعليه أيضا أن لا يفكر أو يدرس شيئا سواها، إذ إن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة![2].

يقول: (ميكيافللي): "على الأمير أن لا يكترث كثيرا باشتهاره بالبخل هذا إذا رغب في تجنب سرقة شعبه"![3].

هل ترى أن هذا شيئاً مناسباً للقائد ليفعله طبقاً لتعاليم ميكيافللي؟

---

(1) كتاب الأمير نيقولا ميكيافيللي صفحة: 144.
(2) كتاب الأمير لميكيافللي ص131.
(3) كتاب الأمير لميكيافللي.

أنا لا أظن ذلك!؟

يقول ميكيافللي "إن الجود ضروري للأمير ولكن ليس من ماله الخاص بل يجب عليه أن يوفر ثروته ويعيش على ما ينهبه ويسلبه ويحصل عليه من التصرف في أموال الآخرين"!![1].

ويبرر هذا المكيافللي: "أن إنفاقك لأموال الآخرين لا يقلل من شهرتك، بل يرفع قدرها بينما إنفاقك لأموالك يلحق بك الضرر، وليس هناك ما هو أشد ضررا على نفسك من الجود والكرم.[2]

لا رفع الله لك قدرا يا ميكيافللي حتى بعد أن مت، كلنا نعلم أن الكرم من مال الغير رذيلة وليست فضيلة، أبدا، لن أستطيع أن أترحم عليك يا ميكيافللي فالفضائل ضاعت منك كثيراً، كثيراً..

ولم يكتف هذا المكيافللي أبدا بالقليل من الموبقات، فلقد زين للأمير أن يكون حيوانا في ذاته، أي أمر أن يكون ثعلبا وأسدا بينما نور السماوات والأرض كرم الإنسان بجعله إنسانا وحسب، يحافظ على وعوده، لا يثنيه عن وعده شيئا، يقول ميكيافللي: إن على الحاكم الذكي المتبصر، أن لا يحافظ على وعوده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه وأن الأسباب التي حملته على إعطاء هذا الوعد لم تعد قائمة..![3]

(1) نفس المصدر: صفحة: 140.
(2) نفس المصدر: 141.
(3) الأمير ميكيافللي صفحة: 148.

لا، لم يكتفِ "نيقولا ميكيافللي" بذلك بل قال: "إن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليدا طيبا، ويقصد متقنا، قد نجحوا أكثر من غيرهم"، وقال إن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد إخفاءها عن الناس وأن يكون مداهنا كبيرا ومرائيا عظيماً.[1] هذا المبدأ الميكيافللي جعله كثير من الحكام مصباح علاء الدين وماردا يحملهم إلى مصالحهم الذاتية التي لا تنتهي ويفزع الرعية التي تتطلع إلى أعلى.

حاشية: كان لابد من وضعها هنا في عرض الكتاب وطوله، وليعذرني القارئ إذ إن موضوعنا كان وما زال عن المرأة السياسية ولكن لأن السياسة قد لونها "مكيافيللي" بلون يختلف عن الألوان الإنسانية الأخرى كان لا بد من هذه الحاشية أو الوقت المستقطع. الملك فريدريك الأكبر كان له موقف عجيب مع ميكيافللي فقد كان في بدء عمره تلميذا حميماً لفولتير الشاعر والفيلسوف الفرنسي الكبير وكانت بينهما مراسلات طويلة وكانت وثائق مهمة عن ذلك العهد كشفا وإثارة: فهي تعبير أدبي رائع لشخصيتين بارزتين، فقد أعجب الأمير فريدريك بأفكار فولتير للدرجة التي جعلت هذا الملك يكتب كتاباً أسماه "الرد على كتاب الأمير لميكيافيللي"[2] حاسب فيه ميكيافيللي حساباً عسيراً على ما بدا في كتاب ذلك الفيلسوف الإيطالي من تبرير لأي ذريعة يراها الحاكم ضرورية لصيانة حكمه،

(1) ول ديورانت المجلد التاسع عشر، صفحة: 75.
(2) قصة الحضارة ول ديورانت الجلد التاسع عشر صفحة: 75.

وأكد فيه فريدريك الذي لم يكن إلا ولياً للعهد بعد أن: "المبدأ الحق الوحيد للحكم هو ولاء الملك وعدله وشرفه"[1].

وأعرب فريدريك عن احتقاره للملوك الذين يؤثرون "مجد الفاتحين المهلك على المجد الذي يكسب بالعطف والرحمة"[2].

وتساءل فريدريك الأمير الفيلسوف: ما الذي يغري إنسانا بأن يطلب عظمته الشخصية بإشقاء غيره من الناس وتدميرهم"[3].

ويستمر فريدريك: "إن ميكيافيللي لم يفهم طبيعة الملك الحقة.. فهو ليس السيد المطلق المتصرف فيمن يدينون لحكمه، إنما هو أول خدامهم، وينبغي أن يكون الأداة لرفاهيتهم كما أنهم الأداة لمجده"[4].

فريدريك عندما أصبح ملكاً وبعد فترة أسابيع وعلم أن محصول الغلال سيكون هزيلا أمر بأن تفتح مخازن الغلال وتباع للفقراء بأسعار معقولة وألغى في جميع أرجاء الوطن اللجوء إلى التعذيب في المحاكمات، واصدر أمراً بالتسامح مع جميع الأديان لأن كل إنسان يصل إلى السماء بطريقته الخاصة[5] ولأن المصالح الخاصة تظل مثل طائر الفينيق في أساطير الفينيقيين رأى

(1) ول ديورانت المجلد التاسع عشر، صفحة: 76.
(2) المصدر ذاته صفحة ص 76-90.
(3) المصدر ذاته صفحة: 76.
(4) ول ديورانت قصة الحضارة الجلد التاسع عشر صفحة: 76.
(5) نفس المصدر صفحة: 78.

فريدريك أن جارته التي تولت عرش النمسا والمجر شابة لها جيش من الدرجة الثانية وأن لديه 100,000 مقاتل أرسل فريدريك إلى صديقه فولتير خطابا جاء فيه "إن موت الإمبراطور - يعني الإمبراطور شارل السادس - يغير كل أفكاري السلمية، وأظن أن الأمور ستنحو في شهر يوليو نحو المدافع والبارود والجنود والخنادق بدلا من الممثلات والمراقص والمسارح، بحيث أراني مضطرا إلى إلغاء الاتفاق الذي كنا على وشك إبرامه"[1] إنها المصالح التي عارضت قول فريدريك بعد ستة أيام من توليه العرش في رسالة بعثها لفولتير: "لقد تبدل حظي، وشهدت اللحظات الأخيرة لملك، ومعاناته، وموته، لم يكن بي حاجة وأنا أرتقي العرش إلى ذلك الدرس لكي أشمئز من خيلاء العظمة البشرية... وأرجو ألا ترى فيّ إلا مواطنا غيورا، وفيسوفا تغلب عليه نزعة الشك، وصديقا صدوقا، وإني أستحلفك بالله أن تكتب لي كتاباتك لإنسان عادي، وأن تحتقر مثلي الألقاب والأسماء وكل مظاهر الزهو والغرور"[2].

وغرهم بالله الغرور، اغتر فريدريك بقوته واتبع ميكيافللي، وإن ميكيافللي لرجل لئيم.

اعود إلى النساء والتاريخ الذي يكتبهن، إنه يكتبهن خاملات في عالم يتحرك من حولهن، وإذا تحركن فهن يتحركن إلى الشر،

(1) ول ديورانت المجلد التاسع عشر صفحة: 80.
(2) ول ديورانت المجلد التاسع عشر صفحة: 77.

لم ينصت التاريخ أبدا للنساء إلا في لحظات تشبه الحلم الذي يوقظ بضربة من قلم يخاف، إنها ورطة رجال التاريخ الخائفين، لا يريدونهن، ولكنهم يحتاجون إليهن!

المفارقة التي لا أستطيع إلا أن أقف أقلب صفحاتها المتعددة هي أن المرأة التي حكمت لم تحكم في زمن التكنولوجيا والأزرار التي تستطيع بها أن تمحو بلدا من الوجود أو تخاطب النجوم، ولكنها حكمت في أمكنة وأزمنة تناهت في البعد والصعوبة، في لحظات من التاريخ بدت المرأة كشخصية محورية يدور حولها التاريخ بثوبه العتيق في محاولة لإعادتها كما يهوى شخصية ثانوية تمده بالإنجاب والإيجاب، وهو ما تفعله حقيقة ولكن هذا التاريخ الهزيل لم يستطع جسده المترهل والمنهك إلا أن يحمل بصمات الأنثى التي ظلت على شكلها الزهري على الرغم من التغضنات التي كست جسده، ولأن هذا التاريخ باقٍ لا يموت بمرضه وأوجاعه وثقوب جسده المنهك، فإنني قد حملته معي في رحلتي اللولبية ولم أتركه ليستريح طويلاً في كل الأمكنة، فهو دائما يظل متعباً ومتعباً، وإنما اخترت بعض أمكنة، رغم رماد العواصف التي ظل جمرها يتلظى، حملته لعل هذا التاريخ المنهك المريض يتدفأ بنار الحقيقة النائمة تحت الرماد، لقد نامت الحقيقة في أمكنة كثيرة وظل التاريخ يستغني عنها خاصة إذا آنس أن بعض الدفء ضاع، فإنه لا يأبه بالوقوف عندها ولكنه في أمكنة أخرى يتوقف لا يبغي الحقيقة ولكن يبغي الدفء القليل المنبعث من هذه الأمكنة القليلة

التي توقف عندها كثيراً، توقف في أوروبا كثيرا هذا التاريخ، هذا الذي لا يأبه كثيرا بالاختيار، فالملكات الأوروبيات أخذن حظهن، وأكثر من دفاتر التاريخ على رغم الصقيع، لأن التاريخ هناك توقف بفعل العوامل البيلوجية المساعدة، أما في الشرق الذي اختلف، فعلى الرغم من البصمات الأنثوية الواضحة وضوح شمس الشرق، ظل التاريخ لا يلتقط إلا الكواكب الكبيرة بينما في أوروبا يستطيع أن يلتقط حتى النجيمات في عز الظهيرة ولأنهن نجمات أو نجيمات في عز الظهيرة كان لا بد أن نقترب من كراسيهن لنعلق على تيجانهن قطعة من ثوب التاريخ الممزق، فهو على أي حال ثوب التاريخ، ولقد حظين به أكثر من بنات الشرق المضيئات لأن البيئة كانت كما رأينا أقل قسوة على جسده المنهك أصلاً.

في أوروبا كان التاريخ أبا حانيا معي مثلما هو مع بقية من نساء عاملات، منحنياً كثيراً من الأوراق التي لم تصفر إلا قليلا، لقد وضعها بين يدي وقال إني خيرتك فاختاري ولم احترْ، فقد اخترت البصمة التي شكلها أنثى[1]، وهي على أية حال قد لا تكون بنفس البريق الألماسي الذي عليه أنثى الشرق، ولكنها تظل بريقا يخطف الأبصار رغم الأحجار التي لم توارِ قصور التاريخ![2].

(1) الأمير صفحة: 149.
(2) (كتاب الأمير، ميكيافللي. ص149).

إليزابث تيودور:

قال عنها سيسل: "إنها أعقل امرأة وجدت لأنها فهمت ميول كل أمير في زمانها وما يولع به وما يستهويه، وكانت على علم تام بمملكتها إلى حد أن أياً من مستشاريها لم يكن لينبئها بشيء لم تكن تعرفه من قبل"، إنها الملكة إليزابث تيودور التي أصبحت ملكة على انكلترا في عام 1558م، "لقد تمكنت هذه المرأة من تلقين وزراء الخارجية في زمانها درساً في الإعلام النشط السريع والوسائل اللبقة، والماكرة بفطنتها السياسية وبراعتها"[1]، ذلك مكنها من مد حكمها إلى خمسة وأربعين عاماً، ولا أدري في الحقيقة هل كان ذلك استجابة لدعاء رجال البرلمان: "حفظ الله الملكة إليزابث، فليطل أمد حكمها علينا"؟

أم إن الذكاء والفطنة وقدرتها على اختيار معاونيها المتميزين هي سبب البقاء؟

لقد هيأت خمس وعشرون سنة من المحاكمات إليزابث للسيطرة وللتفوق، فقد بدأ من حسن طالعها أن يكون هنري الثامن أبا لها، ولكن كان خطرا عليها أن تكون أمها آن بولين، لقد أعدمت أمها في وقت لم تكن إلا طفلة لا تعي، ولكن مرارة هذا التراث الكريه لازمتها في شبابها ولم تبرأ منها إلا حين أصبحت ملكة، لقد صدر قرار البرلمان في عام 1536 على أن زواج آن بولين

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الرابع عشر بداية عصر العقل صفحة: 11.

وهنري باطل فإذن هي ابنة غير شرعية ظل هذا حتى أصدر البرلمان قرارا بحق إليزابث في تولي العرش بعد تولي أخيها من أبيها إدوارد وأختها من أبيها ماري، هنا نعود لميكيافللي واستخدامه لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، الملكة إليزابث استخدمت هذه المقولة بالإضافة لمهارتها السياسية وجمالها وأنوثتها الطاغية، فقد كانت هذه الملكة مليحة القسمات حسنة المظهر واللياقة مما مكنها من السيطرة على العقول والألباب!!

لقد كانت إليزابث بروتستانتية في ظل حكم أبيها إدوارد ولكن عندما اعتلت أختها الكاثوليكية ماري العرش، آثرت إليزابث الحياة على تمسكها بمذهبها الذي كانت عليه، كانت هناك مؤامرة تحدث غالبا بين ذوي السلطة، ولكن هذه المؤامرة لم تنجح في قلب الحكم ونجحت في إلقاء إليزابث في سجن برج لندن لأن هناك تهمة، ولم تثبت وأفرجت عنها أختها ماري "السفاحة"[1].

هذه الأخت التي لقبت بالسفاحة أرسلت لإليزابث مجوهرات التاج البريطاني، إليزابث دائما لم تكن مطمئنة على عرشها، فقد اتفقت الحكومة والكنيسة على أنها ابنة غير شرعية وقد استبعد القانون الإنجليزي كل أولاد الزنى من ولاية العرش، وكانت إنجلترا في ذلك الوقت لا تزال كاثوليكية، وقد أشير على إليزابث بأنها لو هادنت الكنيسة ليمحو عنها البابا وصمة البنوة غير الشرعية واعترف بحقها في الملك ولم يكن بها ميل إلى هذا، ولأن آلافاً من

(1) ول ديورانت المجلد الرابع عشر قسم بداية العقل الصفحة: 4.

الإنجليز كانوا قد وضعوا أيديهم على أملاك انتزعها البرلمان من الكنيسة في عهد هنري الثامن وإدوارد السادس، وكان هؤلاء الملاك يخشون العودة إلى الكاثوليكية ومن ثم تفرض الكنيسة استعادة أملاكها، كانوا على استعداد للنضال من أجل ملكة بروتستانتية، وأيضا بعض الكاثوليك آثروا الملكة البروتستانتية على الحرب الأهلية.

لقد برزت حكمة إليزابث في الحكم باختيارها رجالا ليسوا من أصل عريق، ذلك أن معظم قدامى النبلاء كانوا من الكاثوليك وفي ظن بعضهم أنهم أصلح منها لتولي العرش، لقد عينت وليم سيسل سكرتيرا ومستشارا أول لها، وكان عبقريا في انتهاج سياسة حكيمة ومدبرا للأمور عاملا بارزا في نجاحها، لقد ترك وليم هذا جامعة كمبردج دون الحصول على درجة جامعية، ولكنه دخل مجلس العموم في سن الثالثة والعشرين، كان ملتزماً بالبروستانتية ولكنه تحول في اللحظة الحاسمة إلى ماري تيودور وأصبح كاثوليكيا مطيعا بناء على اقتراح منها ـ أنه متوازن سياسياً ميكيافيلليا ـ "لقد احتفظت به إليزابث لمدة أربعة عشر عاماً كسكرتير وعينته بعدها وزيرا للخزانة لمدة ست وعشرين سنة أخرى رأس فيها مجلس شورى الملكة، وأدار دفة العلاقات الخارجية والشؤون المالية العامة والدفاع الوطني وقاد خطى إليزابث في تدعيم المذهب البروتستانتي في إنجلترا"[1].

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الرابع عشر بداية عصر العقل صفحة: 7.

ماري انطوانيت:

في كل الأحوال، وليطمئن الذين قد يكون في قلوبهم بعض الشكوك أن يكون هناك بعض جزء من الانحياز، فإني سوف أقرُ أنا المرأة الباحثة عبر هذه العاصفة اللولبية، التي حملتني من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب بأنه "ليست أي امرأة امرأة" فماري انطوانيت ملكة فرنسا وابنة الإمبراطور فرانز الأول عاهل الإمبراطورية الرومانية جعلت الشعب الفرنسي يكره زوجها الملك لويس السادس عشر الذي لم يكن محبوبا في الأساس، هذه المرأة التي ينقصها الذكاء كثيرا والتي أطلقت مقولتها الشهيرة: "لماذا لا يأكلون البسكويت بدلا عن الخبز" عندما رأت الفقراء يصرخون من الجوع، هذه المرأة كانت سببا من أسباب سقوط زوجها وإعدامه!!

فقد حولت هذه المرأة الشديدة التبذير، المتعجرفة، الخزائن الفرنسية إلى خاوية الوفاض، لقد أطلق عليها شعبها "السيدة إفلاس" هذه السيدة التي كانت حقا وصدقا جاهلة بالسياسة ولم تكن حاذقة كامرأة من سيدات السياسة، أقنعت هذه المرأة التي أيضاً لم تملك الذكاء كما ملكت الخزائن، أقنعت زوجها بالهروب بعد أن عاثت في الحكم فسادا وجلبت الخزي والعار لوطنها لاستدعائها وزوجها قوات أجنبية كي تسهم في إخماد الثورة ولكن الشعب الفرنسي الذي ثار على الفساد، كشف الأمر واستطاع القبض عليها وزوجها ومحاكمتهما سنة 1792م ومن ثم إعدامها

1793 بالمقصلة بعد تسعة أشهر من إعدام زوجها لويس السادس عشر[1].

هزيلة، لم تكن هزيلة:

على ذكر الحمق والذكاء تحايلت قليلا على عاصفتي اللولبية لتتركني قليلا في الجّوا وهي منطقة تقع في نجد من جزيرة العرب، كانت من أخصب المناطق النجدية أقام فيها بنو طسم وبنو جديس وهم جميعا من أبناء سام بن نوح عليه السلام وكان ملكهم أيام ملوك الطوائف الجاهلية عمليقا وكان ظالما متماديا في ظلمه وأحكامه الغريبة التي لا تمت للذكاء بقرابة ولو من بعيد ولكن لها فواصل في الطمع والغرابة والظلم العاري، لقد لجأت له امرأة اسمها هزيلة تشكو من زوجها الذي طلقها ويريد أن يأخذ منها طفلها، بعد أن فطمته من الرضاعة، قدمت هزيلة لشكواها بالقول: أيها الملك حملته تسعا ووضعته دفعا وأرضعته شفعا حتى إذا تمت أوصاله ودنا فصاله أراد أن يأخذه مني كرها ويتركني ورها.

وهنا أتى دور زوجها فقال أيها الملك: إني قد أعطيتها مهرا كاملا ولم أصب طائلا إلا وليدا خاملا فافعل ما كنت فاعلاً.

فماذا فعل الملك الهمام؟

لقد أمر بالطفل ليصبح من أملاكه، وقال لهزيلة ألغيه ولدا ولا تنكحي أحدا واجزيه صفدا، فقالت هزيلة: أما النكاح فإنما بالمهر

(1) عمر رضا كحالة أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام صفحة: 210.

وأما السفاح فإنما بالقهر ومالي فيهما من أمر، فلما سمع ذلك العمليق قولها، أمر أن تباع المرأة فيعطى زوجها خمس ثمنها وأن يباع الرجل وتعطى المرأة عشر ثمن زوجها!

هنا صرخت هزيلة، وهي امرأة شاعرة:

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا

فأنفذ حكما في هزيلة ظالما

لعمري لقد حكمت لا متورعا

ولا كُنت فيمن يبرم الحكم عالما

ندمت ولم أندم وأنى لعترتي

وأصبح بعلي في الحكومة نادما[1]

سمع هذا الملك العمليق الطسمي صرخة المرأة الجديسية ولم يخجل بل تمادى في غفلته وظلمه فأمر أن لا تزوج امرأة بكر من جديس إلا بعد أن يتزوجها قبلا!!

شموس:

لقد ابتليت جديس وأذلت واستمر هذا العمليق على فعاله الشنيعة حتى أتى الدور على امرأة اسمها الشموس عفيرة بنت

(1) عمر رضا كحالة أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام صفحة 210 ـ 211.

عباد الجدسية أخت الأسود الذي كان مطاعا في قومه، فلما حان زواجها انطلقوا بها إلى عمليق، والأناشيد الحزينة ترافقها:

أبدي بعـمليق وقـومي فـاركـبي

وبادري الصـبح لأمـر مـعـجب

فـسـوف تلقين الذي لم تطلبي

ومـا لبكر عنده من مـهـرب

خـرجت الشـموس من عند العـمليق والدمـاء تسـيل منهـا وقميصها قد شق من قبل ومن دبر لتريهم العار الذي صمتوا عنه وهي تنشد:

لا أحـد أذل من جـديس

أهكذا يفـعل بالعـروس؟

لقد كان تحريضها أشد مما تفعله الآن القنوات الفضائية، هزت المشاعر وهي تصرخ:

أيجـمل مـا يؤتى إلى فـتـياتكـم

وأنتم رجـال فـيكم عـدد النمل

ولـو أننـا كنـا رجـالاً وكنتـم

نسـاء لكنا لا نقـر لـذا الفـعل

فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم

وذبوا لنار الحرب بالحطب الجزل

فبعدا وسحقا للذي ليس دافعاً

ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

وأيضاً:

فللبين خير من مقام على الأذى

وللموت خير من مقام على الذل

ويثور بركان الغضب، هي الشموس التي ترفض الضيم وتكره الخنوع، لقد سمع أخوها تعريضها برجولتهم فهبت برأسه عاصفة النخوة ورفض الخنوع، مما حدا به إلى دعوة قومه لمقاومة هذا الظلم.

قال لهم ذلك الأخ: إن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم ولولا ضعفنا وهو يعني استسلامهم لما كان لهم فضل علينا.

المهم أن هذا الأخ اقترح على قومه أن يقوموا بدعوة ذلك الملك وقومه للطعام وقال لهم: فإذا بدأ ذلك الملك وقومه بالأكل نكون قد أخرجنا سيوفنا التي خبأناها تحت الرمال، وهكذا أكلوهم العقاب الرهيب بدلا من أطايب الطعام، لقد قتل عمليق وأهله جميعا لأن الشموس لم ترض بالذل ولأن هزيلة استنكرت حكم ملك ليس له في الحكمة نصيب إنها سياسة الرفض والإعلام المؤثر[1].

(1) أعلام النساء عمر رضا كحالة صفحة 297 ـ 2298 الدر المنثور لزينب بنت فواز العاملي صفحة: 819.

وفي الحكاية الشعبية دلالة:

وللحكايات الشعبية وقع لا يأتي عبثا وإنما يأتي دلالة على موروث شعبي لُمس وتأصل في عمق الشعوب، وهنا تأتي هذه القصة وليس للتاريخ وللأسماء وإنما دلالة على سياسة المرأة وذكائها الخارق في كل عصر وفي كل مكان وفي كل ثقافة وهنا سوف أورد حكاية طريفة من الحكايات الشعبية المصرية التي أوردها الدكتور عبد الله الغذامي في مقالة له، تقول الحكاية: "إن رجلا كان يسيء معاملة زوجته، وطال عذاب الزوجة حتى نفد صبرها معه، ولم تجد من سبيل للخلاص من عذابها إلا عبر الحيلة، كيف؟

قررت أن تقوم بعمل سياسي لا يستلزم منها سفارة أو وزارة، لقد صارت تتخفى خلف الجدار وتحكم الاختفاء حتى لا يلحظها أحد، ثم تبدأ الكلام بصوت مبحوح، لا يدل على صوت امرأة ولا صوت رجل، وإنما كأنه هو صوت شبح مجهول الهوية، يبدأ الصوت محذرا ومخوفا الرجل من مغبة تعامله السيئ مع زوجته ثم يصدر الصوت أوامر إلى الزوج بإحسان العشرة ويأمره بأن يشتري لها الهدايا ويكرم مقامها عنده، ويتكرر ذلك على الرجل كل ليلة في أول الليل حينما يكون في بداية منامه، وإذا حاول الرجل أن يطرح سؤالاً على الشبح جاءه الوعيد والتهديد والتخويف من المرض والعمى والإعاقة إن هو خالف أوامر الشبح.

وانصاع الرجل للتعليمات وصار يطيع الشبح في كل شيء وصار ينفذ الأوامر، وامتد ذلك زمنا غير قصير حتى جاء يوم تشكك فيه الرجل من هذا الشبح ومداومته عليه كل ليلة.

وصار يفكر في الأمر، ثم احتال لنفسه بحيلة اكتشف من خلالها أن ذلك الشبح لم يكن سوى زوجته نفسها تختبئ خلف الجدار وبصوت تمثيلي متقن تحقق مطالبها منه!

هل غضب الرجل الشرير؟

لا لم يغضب، بل أغراه هذا الاكتشاف لقدرات زوجته ومهارتها الذكية إلى أن يستغل الموقف ليجعل منها مصدر ثروة له وذلك باستخدام هذه، والادعاء بأن في بيته جداراً يتكلم!

صدق الناس البسطاء ما أشيع بأن الحائط يتكلم وفتح داره لمن يدفع ليسمع الأعجوبة (يا سلام الحائط يتكلم) وشاع الخبر وأصبح مثلاً، وكثر الناس وكثر المال ووصلت القصة إلى الحاكم الذي رغب أن يسمع بنفسه وصحب معه رئيس القضاة ورجال الدولة، وأعد لهم الزوج صاحب البيت مكانا للاستقبال وحياهم فرحا ببلوغ شأنه هذا (المبلغ) وتجهزت الزوجة لأداء الدور الذي أدته كما يجب وعم العجب وجوه الزوار ودخلوا دائرة الخوف، وصاروا يسترجعون ويهللون إلا أن أحد المرافقين من ذوي النباهة والملاحظة الدقيقة لاحظ شيئا مما حداه إلى أن يذهب خلف الجدار ويلف حوله وحواليه ويكتشف كومة من القماش ويضع يده عليها ويجد جسداً يتحرك!

إنه هي المرأة، وهنا يغير السيناريو من خلف الجدار بواسطة الرجل الآخر الذي يطلب أسئلة أخرى لم يتفق عليها وهنا يسقط في يد الزوج الذي ينادي على شبحه فلا يرد الشبح بل يخرج المرافق ومعه الزوجة التي كُشف أمرها وأمر زوجها الانتهازي، فيحاكمان ويعلم القاضي بأن المرأة لجأت إلى ذلك التصرف بسبب جور زوجها ويقترح القاضي خلعها منه ولكنها تطلب العفو عن زوجها مبدية الصفح عنه"[1].

إذن ها هي المرأة الحائط الذي يستر العورات بصمت، تتمردُ كمارد بالفعل وبالفكر حتى تجعل الحائط يتكلم وتسمعه المدينة بكل أبعادها.

عائشة العمانية الأبية:

تظل الشموس في أرض العرب مشرقة لا تغيب إلا أن تمر سحابة سوداء يأتي بعدها المطر ليغسل الأرض وينهي الغبار من جنوب جزيرة العرب على شواطئ عمان الجميلة وفي أرض القرنفل "زنجبار" نشأت عائشة بنت سلطان إمام مسقط وحاكمها، نشأت تلك الأميرة العربية التي حمت ابن أخيها الذي آل الحكم إليه بعد وفاة والده وهو بعد صغير لا يحسن الحكم ولا حماية بلده وملكه، كان الحاكم سعيد بن سلطان في التاسعة من عمره عندما توفي والده وكان لا بد أن يولى عليه وصي مما أسعد الوزراء والمقربين

(1) مقالة للدكتور عبد الله الغذامي في جريدة الرياض العدد: 13464.

من السلطة التي شغرت، لأن هذا الفراغ سيتيح لهم ما لم يتح لهم في حياة الكبير!!

العمة عائشة ملأت الفراغ إذ أعلنت إنها سوف تكون هي الوصية وسوف تحكم البلاد!!

وحكمت الأميرة عائشة بقوة وحزم ورغم الصدمة التي مني بها الوزراء إلا أنهم لم يجدوا في نهاية الأمر إلا الطاعة والخضوع، سهرت عائشة على أمن البلاد، والويل للمخاتل والكسول ولم يكسل الرجال الآخرون الحالمون الذين رأوا أن المرأة يجب أن تنزع منها الوصاية والحكم، الذي رأوا أنه خلا لهم وما خلا من المرأة الشجاعة التي صممت على أن توصل الحكم لولي العهد الصغير بعد أن يكبر، لا تحزن يا سعيد فعمتك بالمرصاد لمن يريد أن يحكم البلاد بالنار والحديد، لقد أقبل أبناء العمومة أو الفرع الآخر من الأسرة في محاولة لانتزاع الحكم من تلك الوصية فأعملوا السلاح في أطراف البلاد ووصلوا إلى مسقط الحصينة حاصروها لتجوع وتخضع ولكن هيهات أن تخضع المرأة الشامخة والمدينة المجللة بشموخ المرأة القوية ورجالها المخلصين، رغم الحصار والدمار الذي حول المدينة إلى ملجأ للجائعين، الذين أبوا إلا أن يشاركوها رحلة الكرامة أو الموت، والموت بعزة هو الحياة لمن يطلب العلا، والعلا هو ميتة واحدة بكرامة، وهذا ما قررته السلطانة عائشة بنت سلطان، لقد وجدت أن لديها ما يكفي من البارود لمعركة واحدة ولكن البارود

وحده لا يكفي ولا حديد هناك ولا نحاس إلا في ما يستخدمه الناس كمسامير للأبواب والصناديق!

وهنا كان الحل الذي لا يعصى على المرأة فقد خلعت وجمعت وأعوانها كل مسمار من حديد على باب أو صندوق وصهرت النحاس والرصاص ولم توفر الريالات الفضية التي كانت في خزانة القصر لتكون قذائف مع الحجر الذي التقط بعناية ليتم حشره في فوهات البنادق والمدافع التي صبت حممها على المتربصين على حين غرة، بعدأن ظنوا أن المرأة سوف تهزم وتسلم الحكم لهم، ولكن عائشة الأبية أبت إلا أن تسلم ابن أخيها على طبق من ذكاء وحكمة، الحكم بعد أن يبلغ السابعة عشرة من عمره، وتظل الشموس تشرق دائما في أرض الزهور والعطور، ظلت ذكرى عائشة أريجاً يشم في ربى عمان العزيزة[1].

نورة أخت أخو نورة:

كان ميلادها في عام 1292هـ / 1875م في مدينة الرياض، كانت تشاركه اللعب، وكان يكن لها الاحترام، كانت تكبره بعام، تلك نورة بنت عبد الرحمن بن فيصل آل سعود امرأة لا ينساها التاريخ، إنها أخت الملك عبد العزيز ورفيقة دربه، كانت رفيقته عند خروج الإمام عبد الرحمن بأسرته من الرياض في أعقاب موقعة المليداء 1308هـ/ 1891م.

(1) ذكريات أميرة للأميرة سالمة بنت سعيد بن سلطان.

بعد سنوات وبعد استقرار أسرة الإمام عبد الرحمن في الكويت كانت نورة عاملاً مهماً في شحذ همة أخيها عبد العزيز في السعي نحو استعادة ملك الآباء، فوفقاً للمعلومات المعروفة، كانت نورة هي التي حثته على تكرار المحاولة لاستعادة الرياض الحبيبة بعد أن أخفق في المرة الأولى، فأخذت تقوي من عزيمته وإرادته، وعندما عزم على الخروج من الكويت مع رفاقه لاستعادة الرياض، تحركت عاطفة الأمومة في قلب الأم فبكت والدته بكاءً حاراً وحاولت أن تثنية عن قصده، غير أن نورة الشجاعة شجعته وشدت من أزره وهو الأمر الذي انتهى إلى نجاح الملك عبد العزيز، إنه الدليل الذي لا ينكره الشجعان، نورة كان لها في تثبيت الملك عبدالعزيز دور لا ينسى، ولم تكن النهاية للمرأة، الواعية، الحازمة، فعندما عادت الأسرة إلى الرياض، برز دور نورة مؤثراً في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية، لقد كانت عامل ترابط بين عائلة آل سعود الكبيرة. فعلى الرغم من أن بعض الخلافات بين سعود الكبير وبين الملك عبد العزيز فترة من الزمن إلا أنه عاد في عام 1330هـ / 1912م ليصبح من أشد المقربين والمخلصين له، والمرجح أن العامل الأول الذي أدى إلى هذا التحول في موقف سعود الكبير هو تأثير نورة فيه، إذ كان يكن لها حباً شديداً، وتدلل مواقفها معه على حكمتها وتعقلها ورغبتها في رأب الصدع بينه وبين أخيها، كما أنه من جانب آخر ساعد زواج نورة من سعود الكبير الملك عبد العزيز على استقطاب قبيلة العجمان التي كانت

تحترم نورة وتقدرها اعتباراً لأواصر القربى حيث إن والدة زوجها من هذه القبيلة.

لقد جنبت هذه المرأة الواعية أخاها مشكلات وشؤون القصر الداخلية طوال وجودها، خاصة في السنوات الأخيرة من حياتها، فكانت تحل مشكلات القصر وتتدبر الحلول التي تنهي تلك المشكلات.

لقد كانت تشرف على تسيير أمور نساء العائلة بذكاء وحكمة. وكان الملك عبد العزيز يستشيرها في كثير من الأمور التي تهمه، ويعتمد عليها في جوانب تخص شؤون القبائل، خاصة في ما يتعلق بالنساء اللاتي لهن صلات بأفراد من شيوخ القبائل وذوي السلطة في المجتمع، لقد مارست بشخصيتها المميزة واجبات السيدة الأولى، فكانت تستقبل زائرات الرياض إذ توجههن لزيارة ورؤية معالمها المميزة.

وقد لفتت شخصيتها وعلاقتها المتميزة مع أخيها الملك أنظار كثير من المؤرخين والباحثين، خاصة أولئك الذين أتيح لهم مقابلتها أو الاستماع إليها عن قرب، لقد أعجبت فيوليت ديكسون زوجة المؤلف لكتاب "الكويت وجاراتها " ديكسون والتي اشتركت معه في كتابة فصل عن الأميرة والتي قابلتها في عام 1356هـ /1937م مع بعض نساء الملك عبد العزيز ووصفتها بأنها: "من أكثر النساء اللاتي قابلتهن جاذبية ومرحاً" وأنها: من" أهم الشخصيات في الجزيرة العربية "وتعد: "من أجمل وأعظم وأشهر البنات في كل

عصر". ليتك يا فيوليت سمعت نصيحتها وهي تدعوك للإسلام فقد كانت نصيحة غالية..

يقول عنها هاري سنت جون فيلبي إنها:"كانت السيدة الأولى في بلدها". من الصفات التي تميزت بها شخصيتها أنها كانت تتمتع بالحصافة والحكمة ورجاحة العقل والدين، إضافة إلى ذلك كانت تتمتع بشخصية تنم عن معرفة جدية بسلوكيات التعامل مع الآخرين، وهذه السمة لا بد أن تكون أول سمة من السمات التي تتصف بها من ترى في نفسها بوادر القيادة.

ورحلت الأميرة التي عبقت بالسياسة عن عمر يناهز السابعة والسبعين في عام 1368هـ/1949م. وذكر فيلبي أن وفاتها كانت في شوال 1369هـ/ يوليو 1950م، رحم الله الأميرة نورة، فقد أثبتت أن النخيل في أرضنا تظل شامخة معطاءة. وإن أحاطت بها الجبال الشامخة[1].

الخياطة التي غيرت مجرى التاريخ:

ما الذي دفع متحف هنري فورد في مدينة ديربرون في ولاية ميشـــغان إلى دفع 492 ألف دولار لحافلة قديمة مهترئة أكل بعضها الصدأ وتعود ملكيتها إلى مدينة مونتغمري في ولاية آلباما الجنوبية؟

(1) http://www.darah.org.sa نساء شهيرات من نجد.

ما الشيء الثمين في هذه الحافلة؟

أنه موقف امرأة غيرت التاريخ في الولايات الأمريكية المتحدة، لقد آمنت هذه المرأة بأن الحقوق متساوية مهما اختلفت الألوان وأن الكرامة تستحق التضحية مهما كان نوع هذه التضحية أو ثمنها، في شهر ديسمبر عام 1955م استقلت روزا باركس الخياطة التي كانت تعمل في أحد المتاجر، الحافلة لتعود إلى البيت بعد عمل يوم مضنٍ ومرهق، وهناك داخل الحافلة وجدت مقعدا فارغا، فجلست فيه، ولكن بعد قليل دخل ركاب آخرون، وهنا وقف أمامها رجل متوقعا أن تقوم هي لتعطيه مكانها، عكسا للعادة والأعراف في كل مكان في العالم من أن الرجل هو الذي يقوم للمرأة، ولكن في هذه الحالة، كان الرجل يتوقع العكس، لسبب بسيط فقد كان رجلاً أبيض وكانت روزا باركس امرأة سوداء، وكان هذا هو القانون في الخمسينيات في هذه المنطقة وغيرها من المناطق الجنوبية، على السود أن يتخلوا عن مقاعدهم للبيض!! وعليهم الدفع من الباب الأمامي ثم التراجع والدخول إلى الحافلة من الباب الخلفي!! وكثيرا ما كان سائقو الحافلات يقفلون الباب ويتركون الركاب السود على حافة الطريق بعد أن يكونوا دفعوا.

في تلك الأمسية كان السيل قد بلغ الزبى عند السيدة باركس فقررت أن تعمل شيئا بسيطا للغاية وهو أن لا تقوم للرجل الأبيض، فقط قررت أن ترفض الخضوع لهذا القانون العنصري الجائر!!

وهاج الناس وماجوا وتوقف سائق الحافلة، ولكن روزا رفضت التحرك من مقعدها، لقد كانت مصرة على العصيان المدني وبكل هدوء ومدنية أيضا وصلت بعد دقائق الشرطة!!

وألقت القبض عليها لخرقها قانون الولاية!!

روزا باركس كانت مستعدة لكل شيء ولقد ذكرت ذلك في كتابها القوة الهادئة الذي أصدرته بعد انتهاء كل شيء: "ظللت أفكر بأمي وبأجدادي وكيف كانوا أقوياء، وكنت أدرك إمكانيات الإهانة، ولكني أيضا شعرت أني أعطيت فرصة لعمل شيء أتوقعه من الآخرين" لقد استمرت محاكمة روزا باركس 381 يوماً وانتشرت أخبار عصيانها المدني في كل مكان، وقاطع السود المواصلات وصعود الحافلات مدة سنة كاملة وخلالها بدأت حركة الحريات المدنية للسود.

اشتعلت الشوارع بالغضب والعصيان المدني، وفي النهاية قررت المحكمة أن قانون آلباما في إعطاء الأولوية للركاب البيض ضد الدستور الأمريكي، كان خاطئاً، وكان هذا حدثاً مهماً بعد أن قررت امرأة أن تنتصر لكرامتها وبعد أن اشتعل البلد ودخل مرحلة اضطر فيها أن يراجع القوانين التي تعامل السود كمواطنين من الدرجة الثالثة بعد كلابهم التي كانت ترافقهم حيثما حلوا.

روزا أصبحت في الثامنة والثمانين من عمرها عندما بيعت الحافلة التي تفخر بها أمريكا إلى المتحف، لقد قررت أن تنتصر

لأنها بدأت المواجهة بقلب تعمره الشجاعة والإيمان بحقها في الكرامة[1].

رضية:

وأنا في بلاد الهند أخذتني رجفة الخوف إلى متاهات بعيدة، خفت حقيقة إذ إنني لم أستطع أن أنسى تلك المرأة الجميلة الملفوفة بأثواب الحرير وهي توضع مع زوجها في القبر أو تحرق مع جثمان زوجها الذي انتهت حياته من على وجه الأرض، ظل الخوف يلاحقني من ذكريات حرق المرأة مع جثمان زوجها أو قبرها معه حسب الملة التي يتبعها قومها، وظللت أهرب من هذه الذكريات أزمانا طويلة، وفي يوم غير كل الأيام رأيت أشعة تضيء أجزاء كبيرة من تلك القارة التي كنا نطلق عليها أرض الهند والسند، دخل الإسلام هناك وغير كثيراً من الأمور والعادات.

لقد حكمت المرأة هناك بتفوق ظاهر ليس فيه شك وقد يستغرب ذلك أخونا من جنوب الأرض إن هيئ له قراءة ذلك لأنه مع الأسف لم يشأ الدخول في مغارات التاريخ، ولو دخل متأنيا غير هيّاب لتاريخ تلك القارة غير البعيدة والممتزجة بكل الحضارات لوجد أن هناك الكثير مما سوف يصيبه بالذهول من أعمال المرأة التي سخرت ما يظنونه ضعفا إلى قوة وعمق في الذكاء، لقد تولت السلطانة رضية حكم دلهي سنوات عديدة وذلك في 1236م لأنها

(1) مقالة للدكتور خالص جلبي في جريدة الشرق الأوسط الخميس 2005/11/17م.

وقفت مع الشعب مطالبة بالعدالة، ورافضة للظلم الذي كان يرتكبه السلطان، وهو بالمناسبة شقيقها ركن الدين، الذي قتل أخاه وأخاها الشقيق معز الدين، ليستولي على الحكم الذي لم يشأ والده أن يتولى الحكم بعده هو أو أخوه، وعندما ضغط عليه من قبل الشعب لمعرفة السبب، قال هذا الملك بكل بساطة " أولادي غير قادرين على إدارة شؤون البلاد وابنتي رضية هي الجديرة بالحكم بعدي[1].

كان هذا الوالد واسمه السلطان ايلتوتمش خير دعاية للإسلام في بلاد الهند، لقد ارتقى هذا الرجل للحكم بفضل حماسه واندفاعه لرفع راية الإسلام في بلاد الهند، وهو الذي كان عبدا مملوكا للسلطان قطب الدين إيبك والذي أعجب به وبكفاحه في دلهي زوجه بابنته وبعد وفاة إيبك أعلن حكمه على دلهي وكان من أعظم الملوك الأرقاء الذين أسسوا السلطة الإسلامية في الهند.

نعود للقول إن الرجال الذين لا يخافون من المرأة هم الأقوياء، ولو تتبعنا ما نلمسه في حياتنا وفي وقائع التاريخ لوجدنا الكثير من الشواهد وايلتوتمش هذا واحد منهم، فقد كان قويا مخلصاً، لقد كون لنفسه سلطانا وبقي مخلصا للخليفة في بغداد، ولم يشأ أن يبعثر الدولة الإسلامية بفعل الأنانية التي دائما تطغى بين الحكام، لقد سك هذا الحاكم العملة باسم "ناصر أمير المؤمنين" إنه مؤمن بقوته فاعترف بولائه للخليفة وأعلن ابنته ولية للعهد، لقد أخلص

(1) السلطانات المنسيات فاطمة المرنيسي.

للمبدأ وتطلع للكفاءة، إنهم الأقوياء الأذكياء وذوو الرشاقة في التفكير.

سميراميس:

قاتل الله أفيال الهنود، لقد هزمت امرأة رائعة عشقت التعمير وأحبت البناء، إنها سميراميس ملكة آشور وبانية مدينة بابل، لقد أنشأت القصور وغرست البساتين الخضراء وحفرت الخلجان ومدت عليها المعابر والقناطر، لقد أنشأت هذه الملكة أعظم بناء شيده بشر، إنه هيكل بور الذي بلغ ارتفاعه 660 قدما أي إنه أعلى من الهرم المصري الأكبر، لقد ذكره المؤرخ هيرودوتس وقال إنه مربع الشكل ومساحته 400 ذراع وفي وسطه برج يرتفع نحو 600 قدم وتعلوه سبعة أبراج علو كل منها 75 قدما وفي البرج الأخير معبد فيه تمثال من ذهب، هذه الملكة التي منحت لبابل رونقها وبهاءها المأثور لم تكتف بذلك، ولكنها غزت مصر والحبشة وفلسطين وانتصرت في الغزوات ولكن الأفيال هي من وقفت في وجهها لقد حاولت خداع الأفيال بعمل صور لها ولكن الهنود عرفوا أن لا أفيال لديها فانتصروا، انهزمت الملكة سميراميس فعادت إلى وطنها حزينة مكسورة الفؤاد فقتلها ابنها تيتاس وذلك سنة 2000 قبل الميلاد ولكن الآشوريين أنزلوها منزلة عظيمة ورسموها على شكل الحمامة التي يعتقدون أن روحها انتقلت إليها!!

أليست امرأة رائعة أيها الرجل المتباهي بعلمه في السياسة؟[1].

حتشبسوت:

نعود إلى المرأة المصرية التي حكمت أربع مرات في التاريخ ويا أيها الرجل العجوز ما أكثر ما أخفيت من أسرار في حقيبتك التي ملئت بالخيبات وبالترهات، لنتوقف ثانية في أرض النيل، تميل المرأة دائما لحب البناء، لا للقتال مثل زميلها الرجل، إلا فيما ندر وهنا نجد الملكة حتشبسوت خير مثال على هذه الشهادة التي لم يستطع الرجل العجوز أن يخفيها تحت عباءته الممزقة وأعني به التاريخ الذي يميل دائما للشكل الرجولي وسنرى في آخر هذه الإضاءة كيف ستغير الملكة حتشبسوت في شكلها بناء على رغبة ليست لها، بل رغبة رجالية قاهرة حتى للملكات، اعتلت الملكة حتشبسوت في سنة 1522 ق.م العرش لتكون شريكة لوالدها الملك تحتمس الأول، فقد زوجها والدها من أخيها تحتمس الثالث ليكونا معا في حكم مصر بعده، ولكن حتشبسوت نحت أخاها تحتمس الثالث وتولت الحكم وحدها، وخلا لها الجو لتقوم بالإصلاحات الداخلية التي رغبتها، لقد وطدت دعائم الأمن بدون استبداد، وفتحت أسواقا لتجارة مصر ونشطت الزراعة والصناعة، والأهم من هذا، كان البناء، وهو الذي تجيده المرأة، لقد عملت على تجميل الكرنك، فأقامت فيها مسلتين كبيرتين جميلتين وشيدت الهيكل

(1) إن سميراميس كانت ملكة أسطورية والحقيقة أن اسمها سمورامات وأنها حكمت ثلاث سنوات فقط وأنها كانت قائدة باسلة ومهندسة بارعة وحاكمة محنكة وأن الآشوريين قد أنزلوها منزلة رائعة وجعلوها من آلهتهم: ول ديورانت المجلد الأول صفحة: 266.

الفخم وأصلحت ما خربه ملوك الهكسوس من الهياكل القديمة، نعود إلى ما أجبر به المجتمع الرجولي المرأة حتشبسوت، لقد أرادت إرضاء المجتمع باختراع سيرة نصت على أن الإله أمون نزل على أمها أحمسي على شكل فيض من النور والعطر فأحسنت هذه الأم استقباله فلما خرج من عندها أعلن أن تحتمس ستلد ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة[1].

وقد رسمت حتشبسوت نفسها على الهياكل والآثار في صورة محارب ملتح من غير ثديين وكانت تلبس أمام شعبها ملابس الرجال!!

مسكينة المرأة حتى الملكات كن خائفات من الرجال وهن اللائي أضأن التاريخ!!.

أيها التاريخ العجوز الكاذب، أين ستذهب من نفسك وأنت تجبر المرأة على الاختفاء أو تغيير شكلها وهي تضيء حروفك القديمة التي علاها الغبار؟

أنا لن أبقى أمام حائطك أبكي وأندب، بل إني امتطيت وسوف أمتطي الأشعة الآتية من خلال الغيوم حاملة قلمي الصغير الذي يساعدني على الحفر في صخر هذا الحائط، المبني بسواعد بنيت من حليب أمي حواء، لم تندم أمي حواء في يوم من الأيام، فهي تظل تبني وتعطي، تظل تبني حتى تتسلم ابنتها منها المهمة

(1) ول ديوانت قصة الحضارة المجلد الأول، الكتاب الأول صفحة: 77.

التي لا تملها أبدا، بل تظل تعطي الطفل حتى يكبر، لا تفرق بين ذكر وأنثى تسارع دائما في بذر الحب ونشره فماذا تحصد هذه الجميلة؟

وعودة:

ذكاء المرأة دائما يشق لها الطريق رغم القامات الخشبية التي تأبى أن ترى ذلك، ولكن هذا الذكاء الأنثوي يتسلل مثل النباتات الصغيرة التي تبحث عن ضوء الشمس لتصبح أشجارا وورودا بين أخشاب الغابة.

لا، لن أكتب أشعارا في رقتهن فمنهن من نافس الرجال في قسوتهن وجبروتهن وهنا أيضا لن أناقش القسوة والجبروت، فرحلتي اللولبية لا تمنحني وقتا كي أفتح متاحفها المليئة بكل ما يخيف ويحزن، فالحاكمات مثلما هم الحكام كل لديه متحفه، إلا من رحم الله.

يا الله أسألك الرحمة والعون، إني امرأة تعشق الرحيل في ملكوتك، وقد وضعت فيه من المخلوقات ما لا يخطر على بال بشر، وضعت فيه الأقوياء، ووضعت الضعفاء، ووضعت الخونة والأوفياء، ووضعت السعداء والأشقياء بعملهم ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾[1].

(1) سورة النساء آية: 124.

الحمد لله ها هي المرأة بأمر الله إذا عملت عملا طيبا يدخلها الله الجنة، لا يهمني بعد ذلك شيء..

لا يهمني أيها الرجل المعترض أن أعمل بالسياسة أو أن أعمل بشيء آخر يختلف، العمل عمل والكل سواء، هنا فقط شيء يهمني، إنه المعرفة، فالمعرفة قوة والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، لهذا سوف أعمل، وعلي أن أعرف، ولن أدخر جهدا حتى أعرف ويعرف غيري كل ما يتصل بالحقيقة، قد أنسى شيئا وقد تغيب عني أشياء ولكني سوف أظل أبحث عنها ما حييت، أسأل الله أن ينير بصيرتي ويعينني على العودة كلما أظلم الطريق الذي تسير رحلتي فيه.

مني شِختو:

قبل أن نصعد إلى قمم آسيا أو نعود إلى صقيع أوربا لنتريث قليلا في هذا الوادي الخصيب ونقف هنا في أرض السودان الدافئة في مملكة مروي (900) ق.م لنرى ماذا فعلت الملكة (مني شِختو) لقد تنوعت نشاطات هذه الملكة وعلا دورها في كافة المواقع الأثرية المكتشفة والتي تعرضت للهدم والتدمير من قبل الطبيب الإيطالي (فرليني) وذلك في عام 1834م وهو يبحث عن كنوز ملوك مروي التي نهب منها الكثير وباعها للمتاحف الأوربية[1].

(1) نساء حكمن السودان قديماً: نساء وملكات مملكة مروي: صباح عمر الصادق.

نعود للملكة مني شِختو لقد وضع في سجلاتها أعظم أعمالها الحربية وهو انتصارها على الجيش الروماني عند أسوان وقد غنمت منهم رأس الإمبراطور أغسطس والذي كان الجنود الرومان يحملونه معهم أثناء حروبهم!!

خلدت هذا الانتصار الملكة (مني شِختو) بإقامة معبد لها داخل مدينة مروي فوضعت رأس الإمبراطور تحت سلالم المعبد عند موطئ قدمها أثناء صعودها على درج المعبد، "طرائف الكبرياء أليس كذلك"؟

هذا الرأس المصنوع من البرونز للإمبراطور وجد مكانه في المعبد أثناء التنقيب في آثار ذلك الموقع من قبل (فارستانج) في عام 1910 ونقل الرأس إلى المتحف البريطاني!!.

شنكد خِتُو:

قبل الملكة مني شِختُو كانت الملكة شنكد ختو وهي أول امرأة تصل إلى عرش مروي، ذلك في العام 165 - 145 ق.م وقد شيد لها معبد بالنقعة والذي يقع شرق معبد آمون على سطح الجبل وعليه وجد اسمها باللغة الهيروغليفية كما وجد لها مشهد بارز من الحجر الرملي داخل هرمها بالمقبرة الملكية ولها أثر آخر وهي تضع تاجا يمثل العقرب وقد جلست على العرش الذي اتخذ شكل الأسد وتحمل لواء بيمينها وسعفة النخيل بيسارها، تلك هي النخيل دائما رمز للعطاء، والمرأة نخلة من إحساس مرهف، المرأة نخلة تشرق دائما في الأراضي الخصبة.

مملكة مـروي التي أخـرجت تلك الملكات كـانت ازدهـرت في أرض السـودان واستمـرت من 644 ق.م إلى 545 ب.م حكمهـا 45 ملكا أكثرهم ملكات ولقب الملكة في مروي كان: كنداكة[1].

انديرا غاندي:

الذاكرة المتخمة بالذكريات البعيدة، لا تهرب مني، ولا تلتصق بالزمن الذي لا يمر إلا ويأخـذ مني بعض بعـضي، أرحل في زمن مغرق في البعد ثم أعود، في عاصفتي اللولبية إلى زمن مازلت أراه أشعـة على زجاجتي الملونة التي ترشـقني من آن لآخر بحـزمة من الضيـاء تـلامس شـغـاف القلب أو تثيـر عـاصـفـة من الدهشـة والأشـجـان، أعلم أنـي رحلت ومـا زلت أرحل في بلاد الهند والسند ولكنـي أعـود دائمـا إليـهـا بذاكرتي، فـالبـلاد غنيـة بالبـشـر وغنيـة بالحـضـارة الماضيـة، والآنيـة، والآتيـة، لا ريب في ذلك والمؤشـرات هناك تضيء العقـول التي ترقب، وتلتقط، إنها تلتقط الجواهر في زمن يموج بالظواهر التـي لا تخـفـى على عين سـاهر باحث عن الجواهر، هل نبدأ بـ "إنديرا غاندي" وريثة "جواهر لال نهرو" في رئاسة حزب المؤتمر وكذلك في رئاسة مجلس الوزراء؟

أم ننتهي بها باعتبار أنها حكمت بطريقة الانتخابات العصرية، في عصر يقال لنا: إنكم تختارون، ثم نرى أن الذي يختار غيرنا،

(1) اللغة المروية للدكتور عبد القادر محمود عبد الله، أستاذ الآثار والمتاحف في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وفي عصر نعلم فيه كل شيء، ثم نجهل فيه كيف يضيع الحق الذي نعلمه يقينا؟!!.

إنديرا غاندي التي لن تنتهي الهند بنهايتها الهند انتهت جسداولكن بلدها ستظل تركض رغم ذلك في دروب الحضارة التي لا تقف عند حد، هذه المرأة هزمها ابنها الرجل الذي استغل منصب أمه للنفوذ وللصفقات، مما ألب عليها الخصوم الذين أسقطوها بعد أن استمرت في الحكم 11 عاماً في انتقام رهيب منهم، ولكن إنديرا تعود دائما، عادت تلك المرأة للحكم أقوى مما كانت، عادت مؤلفة حزبا جديدا، أطلقت عليه اسم المؤتمر الجديد، إنديرا كانت أقوى زعيم مر، على جمهورية الهند بعد زعيم الهند الشهير بمقاومته السلبية (المهتاما غاندي) ولا غرابة في ذلك، إنها امرأة لا تخاف، لهذا قتلوها في عام 1984م!!.

بنازير بوتو:

في الجهة الأخرى من شبه القارة الهندية فازت في الانتخاب مرتين"بنازير بوتو" وريثة "علي بوتو" رئيس الوزراء الباكستاني الأسبق وهي أصغر وأول رئيسة وزراء لدولة آسيوية مسلمة فازت في الانتخابات وعمرها 35 سنة، هل هناك وجه للغرابة؟

لقد قررت "بنازير بوتو" خوض الانتخابات والدفاع عن سمعة والدها الذي أعدم، وأسيء لسمعته، بعد عامين من انقلاب الجنرال ضياء الحق على حكمه.

لا غرابة إذن فكثير من الأبناء الرجال يرثون الآباء الذين يقال إنهم فازوا في الانتخاب أيضاً!!

كيف أسقطت "بنازير"؟ في المرة الأولى أسقطها الرئيس غلام إسحاق وسجن زوجها الذي يشغل وزير الاستثمارات، لقد سجن هذا الزوج على خلفية اتهامات سابقة بالفساد!!

بنازير المرأة لم تستسلم، لقد استعادت بنازير السلطة بعد ثلاث سنوات إثر فوزها في الانتخابات عام 1990 - 1993 لكن الرئيس فاروق ليغاري يقرر إسقاطها للمرة الثانية بعد تجدد الاتهامات لزوجها بالرشوة والفساد والدخول في علاقات مشبوهة في الصفقات التي تجريها الحكومة، إنه "السيد 10٪ "كما تطلق عليه الصحافة الباكستانية، مسكينة "بنازير" زوجها كان المشكلة التي لم تستطع لها حلا!!

ميجاواتي:

هناك زعيمات آسيويات أخر نلن الحكم عن طريق الوراثة السهلة ولكنهن في هذه المرة من شرق آسيا، لنذهب إلى هناك لنمر ببعض منهن، هناك ميجاواتي ابنة الزعيم الاندونيسي "سوكارنو" لقد قالت إنها ترى أباها في المنام وإن هناك حكاية قديمة بأن "امرأة سوف تحكم إندونيسيا بعد عام ألفين وإن العدل والسلام سوف يسودان" إيحاء للعامة ليس إلا وهنا نتكلم عن الوراثة، ولا نخجل إلا قليلا إذ لا غرابة في الوراثة حتى في السياسة فالكل يمارسها![1]

(1) مصادر صحفية متعددة.

جلوريا ماكبغال أرويو:

لقد صعدت جلوريا ماكبغال رئيسة للفلبين بعد ثورة شعبية عارمة على الرئيس أسترادا كوريثة لذكرى والدها الرئيس السابق ديسدادوماكبغال الذي حكم بلادهما بين عام 1961 و1965م وما خاب ظن الشعب الذي اختارها، لقد ظهرت امرأة أخرى تختلف، سجلت موقفا لا ينساه الإنسان، سمعت تلك المرأة صوت أسير ينادي، فنهضت من حضن الوحش الذي يحيط بها غير آبهة بصرخاته المهددة المتوعدة، في لفتة إنسانية عالية الهمة ضحت رئيسة الفلبين بعلاقتها مع الرئيس الأمريكي المهتاج المتوعد، وسحبت جنودها من العراق الذي ملأه جورج بوش الصغير بجنوده وجنود آخرين مرتزقة أتوا لنيل الغنائم فسقطوا بين أسير وجريح، الرئيسة أوريو سمعت صوت الضمير في صوت الأسير، الذي أسرته المقاومة العراقية.

إن إنسانا من شعبها أغلى من مليارات يلوح بها بوش مبللة بدموع أم ثكلى، لا المليارات ولا التهديدات هزت فروسية امرأة أرادت الانتصار للإنسانية، صوت إنسان أسير فقير كان أعلى من بوق بوش المتعطش للدماء، أعلى من أبواق أعوانه في أستراليا وأوروبا، إنها امرأة سياستها رضا شعبها، لهذا فقد سحبت جنودها من العراق ثمناً باهظاً لحياة الأسير الفقير الذي أطلق سراحه في يوم 20 يوليو 2004 إنه يوم تاريخي يا جلوريا[1].

(1) صور تلفزيونية معبرة.

إيفيتا الشفافة:

في الحياة الحديثة تتميز إيفيتا الشفافة، لقد ولدت تلك المرأة في البؤس المركب، أعني المادي والمعنوي في 7 مايو 1919 ولدت الطفلة إيفيتا لرجل من ملاك الأراضي، اشترى والدتها ببعض الخدمات التي قدمها لها ثم تركها وعاد لزوجته تاركا لها الفقر والمذلة، وقد كافحت تلك الوالدة التعيسة لتجنب أولادها الغرق في الفقر والتعاسة، خاطت الأم الثياب بواسطة مكينة ملكتها بعد أن تخلى عنها الإقطاعي دوارتي في بيت مكون من غرفة واحدة في لوتوكروس قريبا من بيونس إيريس بالأرجنتين وأدخلت أولادها المدارس في مجتمع ينوء بالفقر نعود إلى الطفلة إيفا التي كان الحظ معها ساخنا مثل سخونة الزيت التي قيل إنه سبب اللون الشفاف الذي ميز بشرة وجهها عندما رش وجهها بسخونته تاركا طبقة سوداء سقطت بعد أسابيع عديدة مخلفة تحتها بشرة نقية شفافة، أجادت إلقاء الشعر في المدرسة، وعندما رحلت إلى بيونس إيرس عملت في الإذاعة وكان صوتها قويا مؤثرا، وعند حدوث الزلزال العنيف الذي وقع في منطقة سان خوان قرر فنانو الإذاعة إقامة حفل خيري لجمع التبرعات، كان من ضمن الحضور دومينجو بيرون الذي ألقى خطابا حول الظلم الذي يسببه الأغنياء للفقراء، هنا تحرك الجرح القديم يدعوها للاتحاد معهم ضده، كان هذا الرجل بيرون في الثامنة والأربعين وهي في الرابعة والعشرين كونا فريقا قويا غيرت شكلها ووقفت وراءه تدفعه إلى القمة تلقنه

كيف يتكلم وكيف يتصرف، لقد أصبح رئيسا محبوبا، قالت إفيتا: "العالم يحتوي على ما يكفي لجعل كل شخص فيه ثريا" لقد أنشأت مؤسسة إفيتا بيرون التي كانت مخصصة لمساعدة الفقراء، كانت تمنحهم الأدوية والزيت والسكر بل حتى هدايا العيد، لقد أحب الشعب الأرجنتيني إفيتا بيرون التي قامت ببناء المدارس والمستشفيات ومراكز الترفيه على أحدث الطرز مخصصة معظم خدماتها للفقراء، لقد أراد الشعب الأرجنتيني أن يكافئ إفيتا بتعيينها نائبة للرئيس، فتردد خوان بيرون لشعوره أن زوجته صارت أحب إلى شعبه منه مما حز في نفسها وأصابها بالحزن، لقد قالت في حديث للإذاعة: أنا لا أملك إلا طموحا واحدا وهو أنه عندما يذكر التاريخ خوان بيرون يقال إن بجانبه كانت توجد سيدة وهبت نفسها لتنقل له آمال شعبه.

كانت قصيرة هذه الآمال، فقد توفيت إفيتا التي كانت مريضة في يوم 26 يوليو 1952 وهي في سن الثالثة والثلاثين[1].

ميلينا ميركوري:

ومن الخمسينيات إلى الثمانينيات ومن الأرجنتين إلى اليونان، من إيفيتا إلى ميلينا ميركوري وزيرة الثقافة اليونانية عام 1981 لقد كانت هذه الوزيرة الجميلة أول من أعاد طرح قضية استعادة الآثار العالمية المسروقة من سارقيها إبان تسلمها وزارة الثقافة وهي

(1) مصادر صحفية متعددة.

أيضاً صاحبة فكرة اختيار عاصمة ثقافية سنوية لأوربا منذ عام ١٩٨٥، لقد جعلت هذه المرأة من وزارتها التي لم تكن ذات أهمية وزارة تموج بالحياة التي تحرك السياسة والأدمغة في كل اتجاه، قوة هذه المرأة حمت حتى الرجال الذين كانوا بقربها، فحين كان رئيس الوزراء اليوناني أندرياس باباندريو يتعرض لأقسى حملة أخلاقية كانت تثار بسبب علاقته بمضيفة الطيران التي أصبحت فيما بعد زوجة له تصدت لتلك الحملة ببسالة بلاغية أخجلت اليونانيين بلغة يفهمونها جيدا، لقد قالت لهم: "لماذا النفاق، ولماذا الانتقاد فأنتم تعلمون وأنا أعلم إن لكم جميعا عشيقات، فاليوناني يولد والخيانة الزوجية في دمه"[1].

صعقتهم "ميلينا مير كوري" فسكت الكلام، هل انتهت "ميلينا مير كوري"؟

لا، لقد سحب وزير داخلية الزمرة العسكرية الحاكمة آن ذاك جنسيتها، ولكنها لم تجزع للأمر بل إنها قالت: "هذا ا يغير من الأمر شيئا فقد ولدتُ إغريقية وإغريقية أموت، أما هو فقد جاء إلى هذه الدنيا فاشيستيا وسوف يرحل فاشيستيا أيضاً".

ورحل ذلك الوزير الفاشيستي الذي لا يكاد أحد يتذكر الآن اسمه، كما رحل الفاشيست جميعا وبقي ذكر ميلينا مير كوري ملء السمع والبصر رغم غيابها عن مسرح السياسة الحاكمة[2].

(1) محيي الدين اللاذقاني الأنثى مصباح الكون صفحة: 294.
(2) الأنثى مصباح الكون: محيي اللاذقاني.

دوران إلى بلاد الصقيع:

هنا في دورتي اللولبية السريعة أجد نفسي في الصقيع مرة أخرى في روسيا، في بلاد الصقيع وفيها لا يخفى أبدا، دفء المرأة، ولا جبروتها أيضا، فلها هناك مقام ولها هناك مقال.

في روسيا وعلى الرغم من كل الصقيع الذي كان ومازال يغلف الأراضي التي كانت يوما إمبراطورية عظيمة ثم أصبحت دولة عظمى ثم تهاوت ثم تفككت وتفرقت مثل حبات السبحة في يدي طفل صغير، كان للمرأة صوت يخترق الصمت الثلجي الذي يذوب تحت أنوثتها وعقلها الممعن في روح التحدي!

كاترينا الأولى:

يعشق الروس اسم كاترينا ولهم كثير من الملكات يحملن هذا الاسم، ولم أتوقف عندهن في رحلتي اللولبية، ولكن عند هذه البنت التي سميت صوفيا أوجستا فردريكا بأسماء ثلاث من عماتها ووالدها هوكرستيان أوجست كان لواء في جيش فريدريك وأمها يوهانا إليزبيث أميرة هولشتين جوتورب وعن طريق هذه الأم كانت ابنة خالة بطرس، وجدت نفسي تتوقف عندها عنوة، لقد كانت هذه البنت تشكو ألوانا من أمراض الطفولة ومنها مرض جعلها تبدو للناظرين وكأنها سوف تظل مشوهة ما بقي لها من العمر فقد تعرج ظهرها وأصبح أحد الكتفين أعلى من الآخرالأمر الذي جعلهم يضعونها في مشد لا تخلعه ليلا أو نهار حتى عاد جسمها

للاستقامة[1] تلقت تعليمها الأولي على يد كاهن لوثري أتعبته بأسئلتها الذكية وأكملت تعليمها على مدرسين فرنسيين أتقنت على يديهم اللغة الفرنسية فقرأت كورنبي وراسبوتين وموليير وهيأت لقراءة فولتير، سمعت الإمبراطورة إليزابيث بهذه الفتاة الذكية وكانت تواقة إلى فتاة لابنها بطرس تمنحه الذكاء الذي كان ينقصه، ـ لقد قال عنه سوفوليف ـ "إنه بدت عليه كل أمارات التخلف العقلي وكان أشبه بطفل كبير يلعب بالدمى ويولع بالكلاب لدرجة أنه يحتفظ بعدد منها في شقته"[2] وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها في زيارة للبلاط الروسي ووصلت الفتاة وأمها موسكو في 9 فبراير 1744 وفي ذات المساء التقت ببطرس الذي وقع من نفسها موقعاً طيباً، وأسر لها بطرس أنه لوثري صميم، وصممت على قبول المذهب الأرثوذكسي، وتعلمت اللغة الروسية وفي 28 يونيو اجتازت صوفيا في خشوع مؤثر مراسم دخولها المذهب وأضيف إلى أسمائها إكاترينا الكسيونا ومن ثم أصبحت تدعى كاترين وفي الغد وفي الكتدرائية الكبرى "أوسبنسكي سوبور" خطبت رسميا للغرندوق بطرس وفي 21 أوغسطس 1745 تزوجت منه، أحبها بطرس ولكنه لم يقلع عن عاداته في الشراب وولعه بالكلاب، كاترينا شغلت وقتها الأول بتثقيف ذاتها الشغوفة بالعلوم وخاصة الثقافة الفرنسية وكاد زواجهما أن يصبح صراعا بين ثقافتين إضافة إلى مشكلات ولادة ولي للعهد التي كان عليها

(1) ول ديورانت المجلد الحادي والعشرون صفحة: 41.
(2) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الحادي والعشرون صفحة: 48.

إنجابه من زوجها بطرس الإمبراطور وهو الذي تم بعد عدة مرات من فقدانها لحملها وهو الذي صار الإمبراطور بولس الأول، أحدث بطرس الكثير من الإصلاحات ولكنه وجد نفسه مكروها من شعبه، كرهه الإكليروس لوثريا وكرهه الجيش خائنا لوطنه وكرهه البلاط الملكي لأن الشبهات حامت حوله بأنه ينوي تطليق كاترين والزواج من خليلته، ولكن سانت بطرسبرج وما حولها كانت تفيض بأنصار كاترين، كان من ضمن المحبين الأميرة إكاترينا رومانوفنا أخت خليلة بطرس التي كشفت عن نية بطرس خلع كاترينا وإحلال إليزافيتا فورونتسوفا مكانها على العرش، وعوملت كاترين معاملة لا تليق بها وهي المرأة الشجاعة التي أحبها من رآها، ولم يستمر صمت كاترين، ودبرت مؤامرة للتخلص من بطرس مع مربي ولدها بولس وزعيم رومانيا كريل رازومرفسكي هتمان ونيقولا كوروف رئيس الشرطة وضباط آخرين واكتشفت المؤامرة وأمر بطرس أن يقبض عليها ثم ألغي الأمر وأمرها بالاعتكاف في بيترهوف وأصدر أمراً بأن يعد الجيش نفسه للإبحار إلى الدنمارك بينما هو تفرغ لحبيبته في أورانينباوم على أن يلحق بالجيش فيما بعد، أما كاترينا فلم يكن أحبابها نائمين بل لحق بها إلكسي وأقنعها أن تعود معه إلى سانت بطرس برج وفي طريقهما توقفا عند ثكنات فوج إسماعيلوفسكي واستدعى الجنود على قرع الطبول، وناشدتهم كاترين أن ينقذوها من تهديدات الإمبراطور وأقسم الجنود على حمايتها بل وقبلوا يدها وسموها مخلصتهم لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمارك، ومضت إلى كتدرائية كازن في حراسة

فوجين والأخوين أرلوف وهناك نودي بها حاكما مطلقا لروسيا ولحقت بها فرقة بريويرازنسكي ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيلة، وصحبها أربعة عشر ألف جندي إلى القصر الشتوي وهناك أعلن مجمع الكنيسة، ومجلس الشيوخ رسميا خلع بطرس وتولية كاترين، وارتدت زي نقيب في حرس الخيلة، ومضت على رأس جندها إلى بيترهوف وكان بطرس ذهب في صبيحة ذلك اليوم إلى هناك ليراها، فلما علم بالثورة هرب إلى كرونستات وعرض عليه مونيش أن يذهب إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش ولكن بطرس كان عاجزاً عن اتخاذ القرار فلما اقتربت قوات كاترين، وظل هذا الإمبراطور يوما كاملا في التماس حل وسط، و لم يجد، ثم وقع على اعتزاله العرش، قيل: لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه[1].

وسجن بطرس في روشا على بعد خمسة عشر ميلا من سانت بطرسبرج والتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنجي وكلبه الصغير وكمانه وخليلته، أجيبت كل طلباته إلا الأخيرة فقد نفيت إليزافيتا فورنتسوفا إلى موسكو ثم اختفت من التاريخ إلى الأبد.

انتصرت كاترين رغم المؤامرات التي حيكت لها وعبرت سفينتها الأمواج العاتية التي تأتي من كل مكان فمجلس الشيوخ ظل كما كتبت في مذكراتها "متبلدا يصم أذنيه عن شؤون الدولة، وبلغت

(1) ول ديورانت المجلد الحادي والعشرون صفحة: 56.

كراسي التشريع درجة من الفساد والتفسخ درجة طمس المعالم"[1]، لقد استخدمت كاترينا الشجاعة والذكاء في أجواء وجدت نفسها فيها، فأحاطت نفسها بالأكفاء من الرجال، واكتسبت ولاءهم وحبهم ولكنها ألزمت نفسها وألزمتهم بالكثير من الأعمال الشاقة، لقد أمرت هذه الإمبراطورة أن تكون لجنة لصياغة قانون تحكم به، وبدأت في أغسطس عام 1767 وتألفت من 564 عضوا تنتخبهم جماعات شتى، ولم تخول اللجنة سلطة إصدار القوانين، بل تقديم المشورة للإمبراطورة عن حالة كل طبقة أو إقليم وتقديم الاقتراحات للتشريع، قالت كاترين عن هذه اللجنة: "إنها أعطتني النور والمعرفة عن جميع الإمبراطورية وأنا الآن على بينة مما يلزم وأعرف بم ينبغي أن أهتم"[2].

عشقت كاترين المعرفة وسعت إلى تعليم الشعب وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع في التعليم الشعبي مخافة أن يفضي انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهرطقة والكفر يعرض النظام الاجتماعي للخطر.!!

هنا قالت: "أصغوا إلي لحظة يا أصدقائي الفلاسفة: ستكونون لطافا ظرافا إذا تفضلتم برسم خطة للشباب، من ألف باء إلى الجامعة.. ليس عندي أنا التي لم أدرس في باريس ولم أعش فيها معرفة بهذا الأمر ولا بصر به.. إنني مهتمة جدا بفكرة إنشاء

(1) قصة الحضارة ول ديورانت صفحة: 78.
(2) ديورانت قصة الحضارة صفحة: 75.

جامعة وإدارتها ومدرسة ثانوية وأخرى أولية.. وإلى أن تستجيبوا لطلبي سأنقب في الموسوعة عما أنشده، وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده".

كاترين قدمت الكثير لروسيا وهنا سوف نتذكر أنها لكي تهدئ من مخاوف الشعب من التطعيم من مرض الجدري وضعت نفسها موضع التجربة وأخذته وهي في الأربعين وكانت الثانية التي يجرب عليها الطعم!!

كاترين لم تكن من هواة الحروب، فقد سحبت روسيا من حرب السنين السبع وخفضت الجيش وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح، وثبتت صلح بطرس الثالث مع بروسيا، وأنهت حربه مع الدنمارك، ورفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل في بولندا إذ قالت: "عندي ما يكفي من البشر الذين علي إسعادهم، ولن يزيدني رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض"[1] لقد كان اهتمامها في البناء هو الظاهر حين بدأت، فقد أقرت حرية التجارة، فعمل على بدء شق قناة بين الفولجا والنيفا لربط البلطيق ببحر قزوين، وعملت على إنشاء المصانع ولكن هناك من يهمس في الإذن الإمبراطورية بأن خارطة روسيا تنحني في خاصرتها التي يجب لها الحماية!!.

وهنا خرجت كاترين المحاربة، مونيش القائد القديم والقائد الجديد جريجوري أورلوف همسا في أذنها: "إن الوضع يكون

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلدالحادي والعشرون صفحة: 82.

معقولا اكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبي ويكون جميلا ورائعا لو استطاعت روسيا الاستيلاء على الآستانة والتسلط على البوسفور"!![1].

وارتكب الأتراك خطأ العمرياستماعهم إلى نصيحة السفير البابوي الغي أخوية فهاجموا روسيا وأيدت فرنسا وحرضت السويد ولكنها رفضت الاشتراك!!

وهزمت تركيا وتركت القرم والبحر الأسود تتدفأ فيه سفن كاترين التي أتت من الصقيع، هنا بدأت المصالح المتضاربة الصراع فبقية الدول الأوربية رأت أن الموقف يدعو للعمل الموحد ضد كاترين حتى لا يقع البوسفور ذلك المعقل الإستراتيجي في يدها، فتصبح روسيا السيد المتسلط على كل أوربا.

هنا اجتمع الأوروبيون مع الترك في حرب طاحنة أنهكت قواد كاترين وتركت للأتراك الآستانة. تلك المرأة لم تكن سياسية فقط ولكنها تمتعت بعقل مميز فقد فاقت الكثير من عشاقها الذين تميزوا بالفلسفة والشعر والتاريخ، فقد كتبت الشعر ومذكرات تاريخية مستفيضة عن تاريخ روسيا والتمثيليات ونصوص الأوبرا وحكايات الجن ورسالة علمية عن سيبيريا بل أن خطاباتها لفولتير كانت تنافس خطاباته لها فطنة وتميزا وتتضارعها رشاقة وخفة دم، وهي التي تكتبها خلال فواصل دسائس القصر والثورات

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الحادي والعشرون صفحة: 83.

الداخلية والحروب التي غيرت خرائط الدول، كان حديثها يجعل ديدرو دائم التنبيه والاستعداد ويحرك مشاعر فولتير حد الانتشاء، "وكان على المرء في تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الفذ الذي هو مزاج من العبقرية والحسن"[1] هذا يكفي يا كاترينا، فالقصة طويلة ولبصمة واضحة جلية أنها تشرق من خلف الغيوم في قصيدة تركتها بين أوراقها: "كوني مؤدبة، رحيمة، منفتحة، عطوفا، متحررة العقل، ولا تدعي سمو مكانتك يمنعك من النزول في تلطف إلى صغار الناس، ووضع نفسك في موضعهم، احرصي على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينقص من احترامهم لك..

انبذي كل كل تصنع وافتعال، ولا تسمحي للعالم أن يلوثك إلى الحد الذي يفقدك مبادئ الشرف والفضيلة القديمة، أقسم "برب" السماء أن أطبع هذه الكلمات على صفحة قلبي"[2].

هذه المرأة أضافت لمساحة روسيا 200,000 ميل مربع وانتزعت الطبقات المتعلمة من العصور إلى الفكر الحديث في الأدب وفي الفسفة والعلوم وكانت سباقة للتسامح الديني، وقد عقد مؤرخ فرنسي مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم لويس الرابع عشر، وقال: إن سماحة كاترين وبهاء حكمها، وفخامة بلاطها ومنشآتها، وآثارها، وحروبها ـ هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ما كأنه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوربا غير أن كاترين إذا

(1) قصة الحضارة ول ديورانت المجلد الحادي والعشرون صفحة: 55.
(2) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الحادي والعشرون صفحة: 72.

نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك، ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس، أما كاترين فهي التي بنت مجد الروس ولم يتح لها ما أتيح له ميزة حكم شعب مهذب، ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة"[1].

وقال مؤرخ ألماني: "كان كل ما فيها "كائنا سياسياً" لا ضريب لها من جنس النساء في التاريخ الحديث، ولكنها في الوقت ذاته امرأة خالصة، وسيدة عظيمة"[2].

كلودين الكسندرين دي تنسان:

من اللاتي تركن بصمات لا تنسى في الحياة الفرنسية كلودين الكسندرين دي تنسان، هذه المرأة التي هربت من الدير الذي أدخلها أبوها فيه ليوفر مهرها، بقيت في الدير هناك منذ كان عمرها ستة عشر عاما حتى هربت وقد بلغت من عمرها الثانية والثلاثين لتختبئ في حجرة رجل اسمه الشفالييه ديتوش وهو ضابط في المدفعية ومنه أنجبت الفيلسوف والكاتب دالمبير الذي

(1) ول ديورانت المجلد الحادي والعشرون صفحة: 106.
عند قراءتي لقولها هذا تذكرت وصية تركها الملك الفرعوني أمينمحيت لابنه قال: «عكس ذلك كانت نصيحة من ملك من ملوك الفراعنة الشرسين» استمع إلى ما سأقوله لك، حتى تكون ملك الأرض، وتزيد في الخير، أقسُ على جميع من هم دونك، فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم، ولا تقترب منهم بمفردك، ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ، ولا تعرف صديقاً.. وإذا نمت فاحرس بنفسك قبلك لأن الإنسان لا صديق له أيام الشر. مصدر ول ديورانت المجلد الأول صفحة: 75.
(2) ذاته صفحة: 106.

أصبح أحد مؤلفي "الانسيكلوبيديا الفرنسية "[1] وسوف نعود

(1) لقد بدأ دنيس ديدرو الذي ولد في 5 أكتوبر 1713 في لانجرز على مسافة 38 ميلاً من ديجون ودرس بكلية لويس الأكبر اليسوعية ومنها حصل على درجة الأستاذية ولكن حياة الرهبنة لم تقنعه فقد انغمس في تجارب عديدة وقد عمل في المحاماة ومن ثم اشتغل كاتباً عند بائع كتب وفي نفس الوقت تابع دراسته في الرياضيات واللاتينية واليونانية والإنجليزية والإيطالية، ظل ديدرو يعيش على الترجمة ودخلها الضئيل وبدأ يكتب كتباً تثير الكثير الإعجاب والكثير من التفكير واستسلم إلى فتنة الفلسفة والفلاسفة وتأثر بدعوة فرانسيس بيكون في قهر الطبيعة وطريق البحث العلمي المنظم، في عام 1746 صدر كتابه أفكار فلسفية هاجم فيها أفكار الكنيسة وما دعاه إلى تسميتها هرطقات لا عقلانية وأمر برلمان باريس بإحراق الكتاب الصغير وكان ذلك بمثابة إعلان عنه فانتشر وترجم إلى الألمانية والإيطالية وارتفع اسم ديدرو وكتب بحوثاً علمية أثارت الكثير من الاهتمام وأرسل إليه فولتير الذي انطبع ذلك العصر باسمه يشيد به وطلب مقابلته وقبل لقائه له قبض على ديدرو في 23 يوليو 1749 وفي 3نوفمبر 1749 أفرج عنه وفي عام 1750 أصدر ديدرو نشرة تمهيدية عن الموسوعة مصدر ول ديورانت المجلد التاسع عشر الكتاب الخامس صفحة 40 وكانت هنالك قبل ذلك موسوعة تشامبرز وقد رؤي نشرها وتنقيحها بمساعدة ديدرو ودالمبير ولكن هذه الموسوعة لم تكن لتشمل كل ما أراده ديدرو فنحيت ورخص في العام 1748 بالبدء في الموسوعة الفرنسية التي انضم لتحريرها نخبة من المحررين منهم فولتير ودالمبير الذي سبق وتكلمنا عنه في هذا الكتاب وقد كتب المقدمة التي اعترض عليها فولتير فرد: إن مثل هذه العبارات هي أسلوب توثيقي، وما هي إلا طريق وصول أو جواز مرور إلى الحقايق التي تتشد تدعيمها.. إن الزمن سيعلم الناس كيف يميزون بين ما فكرنا فيه وما قلناه» (المصدر ذاته) وجان مارتن دي براد وهلفشيوس وجان روسو، الذي انشق عنهم فيما بعد، الموسوعة تعرضت مرة أخرى إلى ثورة القباء فأرسل الملك لويس إلى جويودي مالشرب وهو كبير مراقبي المطبوعات ووعد هذا بالتدقيق وكان متعاطفاً مع الفكر والتأليف، واتهم كريستوف دي بومنت مطران باريس الموسوعة بأنها هجوم ماكر على العقيدة الدينية وصدر قرار من مجلس الدولة يحضر بيع الموسوعة أو نشرها، ازداد انتشار الموسوعة وانضم ديكلوس وجريم ولويس دي جوكور، وفي عام 1759 ظهرت في باريس نشرة سرية تهاجم الحكومة والبرلمان والدين المسيحي وظن أنها من ناشري =

لدالمبير هذا ونقرأ رأيه في الملكة الداهية كاترين دي مديتشي لأن هذا الرأي كان من القسوة بحيث لا يستطيع أي باحث في ذلك التاريخ أو بعده أن ينساه، المهم الآن نعود إلى الكسندرين دي تنسان التي تهرب لتضع ذلك المولود على سلم كنيسة "سان جاك لرون" بباريس لتتفرغ لحياتها الخاصة ولتحقق أهدافها التي اتسعت لتشمل المسافة بين باريس وروما، كانت ترفع هذا في السلك السياسي وتخفض ذاك وعلى الرغم من كل العذابات التي تعرضت لها، لم تفقد الحس الأسري فقد سعت لأخيها حتى أصبح وزيرا في مجلس الدولة[1]، ووضعت ماريفو بدلا من فولتير لعضوية مجمع الخالدين - الأكاديمي فرانسيز - عام ١٧٤٢م[2] جمعت هذه المرأة المال واستخدمت الجمال لتكون ركنا قويا في الحياة السياسية الفرنسية وحياة روما غير البعيدة عنها، وأيضاً الحياة الثقافية، فابنها الذي أنجبته كان دالمبير الفيلسوف الذي كان أحد مؤلفي الانسيكلوبيديا الفرنسية، إذن هنا الغاية تبرر الوسيلة هكذا

= الموسوعة مما دعا ديدرو إلى الذهاب إلى مدير الشرطة وإلى محامي البرلمان وإلى مالشرب وأقسم أنه لا علاقة له بتفجير الإلحاد وصدقوه ولكنهم نصحوه بمغادرة باريس فأبى محتجا أن الهروب اعترافٌ بالذنب وحذره مالشرب من أن الشرطة ستهاجم منزله وتصادر أوراقه ومن ثم ينبغي إخفاؤها فتساءل ديدرو ولكن أين؟ فقال مالشرب: أرسلها إلي أنا فلن يأتي أحد ليفتش عنها هنا. قبضت الشرطة على ناشري النشرة المخزية وعلموا أن ديدرو فقط مسؤول عن الموسوعة التي ظلت فخر لفرنسا وكتابها.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثامن عشر، صفحة: 36.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثامن عشر، صفحة: 36.

قال المعلم نيقولا ميكيافيللي والنساء أخوات الرجال في هذا الموضع أليس كذلك يا رجال السياسة؟![1].

كاترين دي مديتشي:

نعود الآن" لجان دالمبير الفيلسوف ابن كلودين الكسندرين تنسان الذي وضعته أمه على سلم الكنيسة والذي وصف بلاط الملكة كاترين بأنه أفسد المجتمعات قاطبة وألعنها فقد طبقت هذه الملكة مقولة نقولا ميكافللي أن الغاية تبرر الوسيلة، فهذه المرأة التي ظلت لغزاً غامضاً، زوجوها من هنري الثاني ملك فرنسا المقبل وبقيت معه عشر سنوات عاقراً لا تنجب، ثم فجأة تلد في كل عام حتى بلغ العدد عشرة ارتقى عرش فرنسا منهم ثلاثة أمراء، وأصبحت اثنتان من بناتها ملكات، هذه المرأة شهدت انطواء أربعة عروش ملكية وظلت متماسكة تحقق مآربها في كل العروش وتفعل ما تريد بواسطة القوة الكامنة التي كان لابد أن تمارسها لدعم أبنائها الذين لم يكونوا بنفس دهائها، لقد أحبطت في بدء الحياة الزوجية والسياسية، فزوجها الملك هنري المصاب بالكآبة فضل عليها ديان دي بواتيه، ولكنها ظلت مخلصة له وللسياسة التي ورثتها عن لورنزو الفاخر والبابا ليو العاشر، لقد عملت على تثبيت الحكم في أسرتها بكل الطرق، ضربت الأسر المنافسة للحكم بعضها ببعض وهادنت الكنائس وطبقات النبلاء، كانت اللعبة السياسية خير انتقام أرادته لكرامتها المهانة كملكة من زوجها هنري

(1) قصة الحضارة ول ديورانت.

الثاني الذي فضل عليها الغانية ديان دي بواتيه، لقد ظلت هذه الملكة أم الملوك تتحكم في رجال السياسة لأنها كانت فوق الانتقام الضعيف الذي يلجأ له من يدعي القوة، كاترين دي مديتشي ضحكت على الضعفاء المنتقمين ومازالت هذه المرأة لغزا يحير، كاترين دي مديتشي سليلة لورنزو الفاخر وحفيدة البابا ليو العاشر ولدت في فلورنسة 1519م لأبوين ماتا بمرض الزهري قبل أن تتم الشهر من عمرها، زوجها عمها البابا كليمنت السابع وهي في الرابعة عشرة لهنري الثاني ملك فرنسا المقبل، ظلت عشر سنوات عاقرا ثم فجأة هل الأطفال من بطنها في كل عام طفل جديد حتى بلغوا عشرة أطفال عدا!

مات منهم ثلاثة في الطفولة وارتقى ثلاثة منهم عرش فرنسا وأصبحت اثنتان منهم ملكات من أبنائها شارل التاسع الذي تولى الملك وهو في الرابعة عشرة وكان ضعيف الشخصية وفي عهده بدأت الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، جرحها زوجها هنري في كرامتها ولكن ميكيافللي كان من معلميها ليس بذاته ولكن بمبادئه التي تطبق في كل مكان حولها وبكتابه الذي أهداه لوالدها، يقول مراقب إيطالي: "لا يتم شيء دون علمها، وقلما وجدت متسعا لتتناول طعامها، أما أخلاقها فقد سمت فوق جيلها إذ يبدو أنها كانت مخلصة لزوجها غير المخلص".

لقد كتبت تقول: "إنني بمشيئة الله لن أسمح لنفسي بأن يتحكم فيها هذا الفريق أو ذلك، لأنني أيقنت للأسف أنهم جميعا

يحبون الله والملك وإياي أقل مما يحبون مكاسبهم.. وإشباع أطماعهم"، لقد أرخى الأساقفة العنان للمذبحة التي قضت على كثير من البروتستانت في ليل أظلم، فقد كتب الممثل البابوي في باريس إلى روما يقول: "أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبي على أن الله جل جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيها غاية في التوفيق والنيل وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين في القفص"[1].

خرجت كاترين دي مديتشي منتصرة ولكن ذلك أثار الاشمئزاز في أوروبا البرتستانتية ودعا الكثير من المفكرين إلى كتابة التاريخ الدستوري وذلك لأن الملكية الغالية قامت على الانتخاب فالملك إلى عهد لويس الحادي عشر كان خاضعا لمجلس شعبي من نوع ما، والبقايا الهزيلة التي تخلفت عن هذه السلطة الانتخابية هي هذه"البرلمانات" الذليلة ومجلس الطبقات الذي طال إغفاله، وهذه السلطة منحت لتلك الهيئات بتفويض من الشعب، فالشعب وحده صاحب الحق في انتخاب الملوك وعزلهم".

إذن هل نقول إن كاترين دي مدتشي لديها سمة كامنة من القوة أخرجت ذلك العنف والصلابة بعد ضبط النفس الذي واجهت به حرمانها الأولي وخيانات زوجها، لقد وضعت تلك المرأة هويتها

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس عشر صفحة: 201.

على عصر أمتلأ بكل ماهو مخيف وعنيف ولكنها ظلت بيديها الناعمتين تحرك الخيوط كيفما تشاء رغم العواصف والأعاصير التي أقتلعت الضمائر من مبانيها المخملية؟.

المركيزة مدام دو بمبادور:

أوجين انطوانيت بواسون ابنة البقال فرنسوا بواسون صديقة الفلاسفة وأشهر امرأة في أوربا في القرن الثامن عشر، لقد تلاعبت تلك المرأة بمسرح السياسة كأعظم مخرج سينمائي في عصرنا الحاضر، لقد تولى عشيق أمها الإنفاق عليها بسخاء، بعد أن فر والدها الذي حكم عليه بالإعدام إلى هامبرج، لقد تعلمت الفتاة فن الإلقاء والغناء والرقص والتمثيل والرسم والحفر والعزف باختصار كانت الفتاة شعلة من المواهب التي أشعلت بها قلب كل من رآها ومنهم الملك لويس الخامس عشر الذي سرقت لبه وفؤاده، إلى حد أنه قال عنها: "أشد النساء فتنة في فرنسا"[1] لقد وضعها ملكة غير متوجة على فرساي التي اشتهرت بقصورها ومتاحفها والتي تبعد عن باريس 23 كيلو مترا، لقد أحاطت الحاشية بمدام "بمبادور" فراحت توزع العطايا وتعين الأشخاص في المناصب الكبرى بعد إطلاع مليكها الذي لا يرفض لها طلبا مما أوغر عليها رجال البرلمان وأيضاً رجال الكنيسة الكارهين لها أصلاً، لأنها كانت تؤيد فكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة أو انتزاع هذه

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس عشر صفحة: 202 ـ 203.

الأمـلاك إذ كـان هو المهـرب الوحـيـد من إفـلاس الدولة أيضـا، ولتقريبها الفلاسفة الملحدين مثل "ديدرو" الذي نشر مبادئ الإلحاد أو الفلسفة العقلانية (ولا عقل في هذا) وكذلك تقريبها "لفولتير" الذي تزعم حركة الفلسفة المادية والتي بسببها اتهم بمعاداة الكنيسة مما أوغر عليه صدور القساوسة الذين بدورهم حرضوا عليه الملك لويس الخامس عشر ليصدر قرارا يمنع بموجبه دخول فولتير لفرنسا بعد أن فر هاربا وقد حرمت الكنيسة كتبه واعتبرته مخربا للعقيدة الصحيحة وهادما لتعاليمها، لقد كره فولتير تبجح القساوسة ورفض حتى ساعاته الأخيرة أن يتقبل منهم، فعندما أتاه قسان وهو على فراش الموت كان مصيرهما الطرد فقد سأل الأول: من أرسلك؟ قال القس: الله، قال: فولتير فأرني أوراق اعتمادك، فأسقط في يد القس وهرب، أما الثاني فطلب منه أن يعترف بأنه كاثوليكي صحيح العقيدة فطرده وطلب من سكرتيره أن يكتب في وصيته أنه يموت على عبادة الله وكراهية الكهان، سبحان الله الذي علمنا بفطرته التي فطرنا عليها وفي قرآنه الكريم علمنا أن لا واسطة بينه وبين عباده..

نعود إلى بمبادور التي قريت ذلك الرجل الذي توفي وعمره 84 سنة وترك 99 كتابا كان لها دور في قيام الثورة الفرنسية وتغيير العالم، لقد كانت بمبادور أكثر نساء عصرها ثقافة فقد كانت لها مكتبة ضخمة تضم 3500 مجلد، منها 738 في التاريخ[1]

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الثامن عشر الصفة: 55.

في الفلسفة ومجلدات عديدة في السياسة والقانون. ولقد كانت على الرغم من مشاغلها العديدة في مكافحة أعدائها الذين يحيطون بالملك تجد وقتا للقراءة والاهتمام بإنشاء المرافق الثقافية، في عام 1752م منحها الملك لويس الخامس عشر لقب دوقة، وكان الملك غالبا ما يتبع مشورتها في التعيينات وفي المسائل الداخلية والسياسة الخارجية وكانت تستقبل السفراء وتتحدث أحيانا باسم الملك وباسمها فتقول: "نحن سننظر في الأمر"، لقد سلم أعداؤها بسعة صدرها واطلاعها المدهش في الشئون السياسية ولباقتها في الأحاديث الدبلوماسية وإلى نظرتها الثاقبة، وقد أشارت إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكري، وفي 1750 اقترحت على لويس أن ينشئ مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم في خدمة الدولة، ووافق الملك، ولكنه أبطأ في توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع، فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ووفرت له أموالا إضافية عن طريق "يانصيب" وضريبة على لعب الورق وفتحت المدرسة في 1758 ملحقة "بقصر الانفاليد".[1]

إذن المرأة تعمل وتنظر في الأمر منذ أزمان طويلة ولكن المؤلم في الأمر أن الرجل من جنوب الأرض لم ينظر في الأمر حتى في هذا الوقت المتأخر من الوقت!!

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الثامن عشر صفحة 60 ـ 61.

لقد توفيت مدام بمبادور في عام 1764 في فرساي بعد أن أوصت بقصرها الباريسي إلى الملك لويس الخامس عشر الذي يشغله الآن رئيس جمهوريه فرنسا باسم الإليزيه[1].

قبل أن أغادر جادة الشانزليزيه تعبق في أنفي رائحة العطر الباريسي، لن أنسى قصة لا تنسى، فلا بد أن أقف أحيي البطلة القومية لفرنسا "جان دارك" تلك المرأة التي عشقت حرية بلادها فقاتلت الإنجليز الذين كانوا يحتلون بلادها في حرب امتدت مئة عام، لقد قادت هذه المرأة الثورة بشكل أسطوري، قاتلت حتى قبض عليها الإنجليز وأعدموها حرقا![2].

الأشجار الجميلة تقتل أحيانا واقفة:

ما زال قلبي معلقا بأرض الكنانة، سوف أعود إليها، أعود إلى مصر وأذهب معكم لنجدف في نيلها الذي يبدو هادئا بينما يحتضن الأسرار، تلك الأسرار التي تبهر الأنظار حتى وإن وضعت عليها ألف نظارة شمسية ونظارة، في الحقيقة أنا أحتاج إلى نظارة كبيرة للبحث، إلا أنني سوف أدخلها بقلبي وعقلي فقط، فمصر لم تستطع أن تتجبر على المرأة إلا قليلا، ربما لرقة طباع أهلها الممتزجين بماء النيل، أو ربما لأن المرأة فيها قد امتزجت بطين النيل الصلصالي القوي البنيان، ذلك سوف أتركه للكيميائيين، عليهم معالجة ذلك فقد كان أول ملكة تصدرت في التاريخ هي

(1) قصة الحضارة ول ديورانت صفحة: 116.
(2) قصة الحضارة. ول ديورانت.

الملكة "حتشبسوت"، لقد اعتبر المصريون المرأة مخلوقا سامياً لا يجوز الإساءة إليه، لقد عثر في أوراق البردي التي وجدوها في جنوب مصر على وصايا كتبها حكيمهم القديم "بتاح حوتب" تقول: إذا أصبحت رجلا ذا مركز فأقم لك بيتا وأحب زوجتك فيه حبا خالصاً وأعطها كفايتها من الطعام واللباس واشتر لها العطر، وأعد لها الزيت لأن فيه شفاء أعضاء جسمها، واجعلها سعيدة ما دمت حيا فإن المرأة مرآة لزوجها ينعكس فيها ما يبذله في سبيل سعادتها، ولا تكن خشنا في بيتك فاللين يحرك قلب المرأة والغلظة تنفرها".

حقاً الغلظة تنفرها ولهذا سنقرأ شيئا بعيدا عن الغلظة ولينا يحرك القلب ويسيل المشاعر الرقيقة أنهارا، دعونا نقرأ رسالة مؤثرة جدا لقائد عسكري من قواد الفراعنة الذين أخذتهم الحروب عن زوجاتهم، قال هذا القائد المسكين يرثي زوجته بعد وفاتها قبل أن يعود إليها: "ماذا فعلت بك حتى أجد نفسي في هذه الحالة السيئة التي أنا فيها الآن؟ لقد كنت زوجتي عندما كنت في سن الشباب، وكنت عندك ولم أتخل عنك ولم أدخل إلى قلبك أي هم، وعندما كنت أرأس ضباط جيش فرعون وجنود العربات جعلتهم يحضرون ليقدموا فروض الولاء بين يديك، وقد جلبوا لك مختلف الأنواع والأشكال الجميلة لكي يضعوها أمامك، ولم أخف عنك طوال حياتك شيئا، ولم أفعل بك سوءا، ولم أخنك، وعندما مرضت بهذا المرض الذي اعتراك استشرت كبير الأطباء الذي حضر

ليعودك وقدم لك الدواء وأجاب لك كل طلب، وعندما وجب علي أن أرحل إلى الجنوب في رفقة الفرعون، كنت بأفكاري وقلبي عندك، وقضيت الشهور الثمانية دون أن أتناول أي طعام أو شراب كما يفعل الناس، وعندما عدت إلى "منف" استأذنت الفرعون وحضرت إليك، وكانت روحك قد صعدت إلى السماء قبل وصولي بلحظات، فبكيتك كثيرا مع أهلي أمام منزلي وأحضرت ملابس وأقمشة لكي يلفوا بها جسدك الطاهر، ولم أدع شيئا حسنا إلا فعلته لك".

"ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" هذه قاعدة في السياسة علم بها الله سبحانه وتعالى عبده الطيب الرحوم محمداً صلى الله عليه وسلم ليدير بها شؤون الحياة المتغيرة، ونرى كيف تتغيرالقلوب بالمعاملة الحسنة فإذا الذي كان بعيدا عنك يأتي إليك كأنه ولي حميم وإذا الشك الذي كان يحيطك ينقلب إلى شفافية تحيط القلوب.

وتطبقها المرأة في تعاملها بالرقة وبالرحمة فإذا هي تحتوي زوجها وإذا هي تحتوي طفلها ومن حولها، والشواهد تأتي في كل حين رغم كل تلك الأحجار التي توضع على أزهارها كي لا تخرج للنور الذي نراه ينبثق في كل الأرجاء رغم التعتيم والتكميم.

هذا التعتيم هو في الحقيقة ثقافة مجتمع ليس متوائماً مع ذاته وإنما هناك استراتيجية ذكورية مستقطبة لبعض الأصوات النسائية التي تم استقطابها بعيداً مراكز الوعي والاستراتيجية الذكورية التي تقلل من إمكانيات النساء تظهر خوفها غالباً على

النساء، فالمرأة ضعيفة والمرأة لا تحسن الاختيار و.. و.. ونعود في هذه الحالة إلى نصيحة أفلاطون إلى تلاميذه في طبقة الحراس وثقافة مجتمعه والمجتمعات التي لحقته.

أفلاطون لم يكن ذا فظاظة في الظاهر ولكن هي ثقافة مجتمعه الذي حمل الأنثى كل مساوئ البشر بينما لو تمعنا في كتاب الله المنزل لوجدنا أن الأمر يختلف والمرأة تكلف مثلما يكلف الرجل، فالتكليف يشملهما الاثنين والمقدرة على الحكم وتكوين الرأي تشترك فيها المرأة والرجل فالقرآن أتى ببلقيس كامرأة تحكم بعقلانية وتفكير ناضج فاق كل مستشاريها الذين أشاروا عليها بمقاومة الملك العظيم سليمان بينما هي أرتأت التفكير العقلاني والأسلوب السياسي الهادي.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159).

إذن نعود إلى أن رقة المرأة ميزة تميزها إذ تمنحها مجالاً أرحب لممارسة السياسة والاحتواء الذي برعت فيه أسماء وأسماء ارتفعت أشجاراً تعانق السماء.

الشجرة:

شجرة الدر تلك الجميلة المثقفة التي استكان لها الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب وكانت جارية له ثم تزوجها بعد أن ولدت

له ابنا أسماه خليلاً، أم خليل السلطانة شجرة الدر كانت من الذين أذاقوا الصليبيين شر الهزائم، تولت الحكم وزوجها مريض يعاني سكرات الموت فلما توفاه الله جل جلاله أخفت الخبر حتى لا يكون هناك انشغال بالمهم ويترك الأهم وهو قتال من جاء يريد الاحتلال وتأديب أبناء صلاح الدين، الذي ردهم عن القدس الشريف، لقد أتى لويس التاسع ملك فرنسا وهو يحلم أن يتنزه في بحار العرب، لكن حلمه أصبح كابوسا وسجناً فكه منه ابن الملك الصالح توران شاه بعد أن استلم السلطة من زوجة أبيه "الشجرة" التي ظلت تقف مع المماليك قائدة وموجهة حتى تم النصر على الأعداء، لقد حكمت تستخدم الدهاء والحكمة فكان خطباء صلاة الجمعة على منابر مصر يدعون لها بعد الدعاء للخليفة: "اللهم واحفظ الصالحة ملكة المسلمين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل" وضربت النقود باسمها[1].

كانت ملكة عظيمة ولكن الشر دائما له جولة، لقد اختلفت شجرة الدر مع توران شاه لأنها أخفت موت أبيه عنه في لحظة كانت أحوج إلى التلاحم والسكون ولكن لأنها السلطة الساحرة ولأنها كانت زوجة أبيه التي ظن أنها تفضل المماليك عليه، أبى ذلك الرجل إلا أن يقتلها، فحرض عليها المماليك الذين أبوا أن يقتلوا سيدة وزعيمة ولكن توران شاه عزل كل من أسهم في حمايتها وانتصر لها ومعها، لقد قتلها ذلك الذي لم يستطع أن يكون لها ابنا

(1) عمر رضا كحالة أعلام النساء صفحة: 288.

أو زعيما، لقد كانت تلك المرأة تستحق أن يسجل التاريخ اسمها بأحرف من نور.

هكذا الأشجار الجميلة، فمن جارية مملوكة إلى زعيمة تضرب النقود باسمها وتسير الجيوش بأوامرها.

دائما هي الأشجار جميلة ولكنهم يقتلونها واقفة![1]

السهام لمن توجه؟

يقول صمويل جنسن: وليس نحن من يقول فنحن نعيد كل شيء إلى خالقه فنقول: وهب الله، "سيدي لقد وهبت الطبيعة المرأة من القوة ما لا تستطيع الشرائع أن تزيد عليه شيئا " إذن هناك إقرار بأنها منحت القوة ـ حمل الجنين ـ الذكاء والحيلة ـ إن كيدهن عظيم ـ الصبر ـ إرضاع الطفل والعناية به ـ إذن وهبت المرأة القوة وبذلك معرفة وإقرار عرّفه الله وأقره العارفون، لكن العارفين يحددونه أيديلوجيا بما يتواءم ورغبات المتحدث فإذا أرادها قوية فيجب أن تكون قوية "على الأقل جسمانيا" وأن أرادها عكس ذلك فيجب أن تكون ضعيفةً خاضعة!!

أن موقع المرأة المحوري من الحياة الاجتماعية والسياسية شيء غير قابل للإخفاء، فمن ذا يخفي نخلة في أحشائه؟

(1) أعلام النساء، لعمر رضا كحالة.

وهنا أقرن دائما المرأة بالنخلة، فبينهما تشابه كبير فالنخلة عميقة الجذور وكذلك المرأة، والنخلة جميلة الشكل وكذلك المرأة، والمرأة كثيرة العطاء وكذلك النخلة.

يكتب دائما الرجل هنا في العالم الإسلامي مثله مثل الآخرين عن المرأة ويسهب فمكانتها شغله الشاغل وإيجابا يقول عنها (هكذا يقول عن نفسه) فنجده يبدأ بأن الإسلام كرم المرأة (وهذا حق) وأنه رفع مكانتها عما كانت تعانيه من الاحتقار والتهميش، عند الشعوب القديمة، ثم يأتي على ما يحصل لها من انحلال في بلاد الغرب وكيف أن الإسلام، رفعها، وكرمها، هكذا يستمر، المقال، والبحث، والمحاضرة، يقال هذا بشكل ممل، لا تجديد، ولا إضافة، حتى أصبحت هذه البحوث مثل الطعام، الذي تجبر على أكله بعد أن تكون قد أكلت حتى التخمة!!.

وفي الواقع التطبيقي يتصدى هؤلاء الرجال لوجود المرأة العملي، في الأندية الفكرية، وفي مراكز القرار!!

فهناك محاذير: إنها الفاتنة، هي المحرك للفتنة،

إنها ذات التفكير القاصر الذي يدور حول ذاتها،

إنها معظم الأشياء التي تضر الرجل البريء!!

إذن هناك إصرار على التفكير الأحادي الذي يشكل في الواقع إفلاسا لأي مجتمع يريد النهوض، إن هناك نفاقا وكذبا يطرح حاضرا وكتبا اصفّر وجهها خجلا عبر السنين، يقولون وهم كاذبون

إن المرأة مارست حقوقها المتاحة لها في كل الشرائع السماوية، كذب هذا وكذب كبير، لقد سلبت المرأة كثيرا من حقوقها بطرق متعددة فتارة باسم الدين والحفاظ على الأخلاق، وتارة أخرى باسم سد الذرائع التي هي ذرائع في ممارسة التضليل وسلب الثقة، من ذات الإنسان الذي هو في هذه الحالة الأنثى، التي خلقها الله بشرا سويا، لها الحساب مثلما له، ولها الثواب مثلما له، لم يفرق الله جل جلاله في تكليف المخلوقين ذكراً وأنثى بالعمل.

يقول الله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

إذن ها هو الخالق، وهو الحق الذي يحق الحق ويزهق الباطل، قد أثبت للمرأة الولاية، مثلما أثبتها للرجل، لقد كان الله تعالى بها رحيما عالما وواثقا من بشريتها التي تقبل الخطأ وتقبل الصواب، تماما مثل الرجل، ولكن هذا الرجل أبى إلا أن يسلبها بعض الذي لها ويضيف لها أشياء فوق طاقتها، بحجج تغوص في هواه، وهواه لا يقف به عند الأمور التي تقرر لها حقها الثابت ولأننا نريد الحق الثابت الذي منح لنا من لدن حكيم عليم، دعونا نقف هنا سويا أمام مفردة (يأمرون) لقد جمع الله تعالى في هذه المفردة بين الرجل والمرأة، إذن هن "يأمرن"، المرأة تأمر بالمعروف والمرأة تنهى عن

(1) سورة التوبة الآية: 71.

المنكر والرجل كذلك، وهي ولية للرجل مثلما هو ولي لها وهي لباس له مثلما هو لباس لها، أنا لا أفسر القرآن ولست أدعي أني من مفسريه ولكني أعلم أن الله تعالى خلقنا سويا ذكرا وأنثى وجعلنا نعيش على هذه الأرض لنعمرها، بيننا المحبة والنصرة لبعضنا، هل أخطأت؟

أعلم أن هناك سهاما ستوجه لي من الذين يظنون أنهم وحدهم حماة الإسلام، والإسلام بريء مما يُفعل باسمه هو بريء بريء بريء وأنا بريئة أيضا إن شاء الله إلا من الخطأ غير المقصود ولكن السهام دائما ليست دقيقة أعوذ بالله من أن تصيب الأبرياء، وأما الصواريخ فالعالم الإسلامي بعد لا يستطيع توجيهها وأقولها والله وكلي أسف فالقوة جميلة حتى وإن كانت مخيفة، تذكرت الخوف، لماذا تخاف المرأة من حكم المرأة عليها؟

في كثير من المرات نرى المرأة المندوبة للعطاء تقسو على من حولها.. لماذا؟

إنه الخوف!!

هي المسئولة وتخاف، كيف؟

إنه الموروث والتربية، إنه التجمع الذكوري، أراد ذلك، وطبقه حتى بواسطة المرأة ذاتها!!

لا مجال للإنكار، فالخوف فيروس يصيب من يضعف من النساء كما أصاب الكثير من الذين يحملون الجينات الذكورية

الكاملة النمو، إذن ليس محالا أن تتخلى الشجاعة عن المرأة في أوقات تتحدُ فيه الذكورة وتتشرذم فيه النساء..

في كتاب أصل الفروق بين الجنسين، لعالمة النفس الألمانية الدكتورة أورزولا شوي ذكرت تجارب تثبت أن المرأة تجبر على أن تكون غير ذاتها التي خلقها الله!!

ساقت هذه العالمة كثيرا من التجارب والممارسات التي تتعرض لها المرأة منذ حملها جنينا حتى سلبها أهليتها بعد أن تتقدم في العمر فالأم تُهيأ لاستقبال الولد الجنين بكثير من الضغوط، جميل أنه ولد، وآه، إنها بنت، يأتي المولود، وهنا يبدأ حقن الرغبات!!

تقول أورزولا شوي في كتابها أصل الفروق بين الجنسين: "يبدأ فرض الهوية الجنسانية في رحم الأم، فإذا انقلب الجنين بحيوية زائدة قيل سيكون صبيا وكذلك في الرضاعة فعلى البنات الصغيرات أن يتناولن الحليب أسرع من الصبيان وفي المتوسط يُفطمن أبكر من الصبيان بثلاثة أشهر"[1]!!

إنها تؤكد أن هذا الكلام ليس جزافا بل إنه حقيقة مختبرة علميا ويحدث بتأثيرات لا شعورية لكنها موجهة في المحصلة الأولى، تقول هذه العالمة أيضاً في كتابها الآنف الذكر: "إن البنات يلقين إهمالا شديدا في جميع المجالات المهمة، إنهن يلقين تشجيعا أقل وإن وجد التشجيع فسيكون موجها نحو (أنوثتهن) القادمة ليس

(1) أورزولا شوي، أصل الفروق صفحة: 13.

إلا، وهذا ما يخلف أضرارا خطيرة وتشويهات، ذلك لأن الطفل لا يتطور بنفسه أي من ذاته بل يعتمد على التشجيع والتحفيز"[1].

في هذا الكتاب أوردت المؤلفة تجربة لها مغزى دلالي كبير أوردها عالما الجنس الأمريكيان ماني / ايرهارد في كتابهما " ذكري - أنثوي " عن توأمين ذكرين أحدهما حصلت له عاهة اثناء الختان فنصح الأطباء أهله أن يربوا هذا الصبي كبنت وهكذا، لبس هذا الولد أو البنت التي سوف تكون بنتاً وعمره 17 شهرا لأول مرة لباس البنات وغيرت تسريحتها وتغير اسمها وبعد ذلك بأربعة أشهر أجري لها تصحيح جراحي أو عملية تحويلية بحيث تبدو كأنثى ومن ثم معالجتها بالهرمونات الأنثوية المهم حسمت الأم أمرها بتربية هذا المخلوق الصغير كبنت، يقول:" ماني" عندما رأيناها بعد سنة كانت راغبة بالفساتين أكثر من البناطيل وكانت معتزة بشعرها الطويل، ومن يهتم لهندامه يهتم أيضا بالترتيب، هكذا، فعندما أصبح عمر البنت أربع سنوات ونصفا تحدثت الأم عن أن "الابنة أكثر ترتيبا من الابن، وأنها بعكسه لا تريد أن تلوث نفسها، إنها تصير أكثر فأكثر ترتيبا"!![2] المهم وصلت القصة إلى أن المخلوق الذكر أصبح أنثى بالتربية ومسالمة مثل حمامة!!

هل نعود إلى جان جاك روسو وفلسفته في التربية التي يريد بها أن يكون مجتمعا رجاليا متفوقا ولتأكيد ما قاله العلماء في السابق من هذه الأسطر؟

(1) أصل الفروق أرزولا شوي صفحة: 13.
(2) أصل الفروق بين الجنسين أورزولا شوي صفحة: 12.

يقول: "كل شيء ينطوي على تعميم للأفكار ليس داخل نطاق المرأة، فدراستها ينبغي أن تهتم بالأمور العملية، فمهمتهن تطبيق المبادئ التي يكتشفها الرجل، ويترك لهن أن يعملن الملاحظات التي تؤدي بالرجل إلى اكتشاف هذه المبادئ"[1].

إذن هل نقول إن بالتربية نستطيع أن نغير الموازين؟

للتأكيد على هذا نأتي باليقين الذي لا ينطق عن الهوى، يقول رسول الله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" إذن هناك من يقولبها أي يضعها في قالب الدعة والاستكانة فإن هي خرجت عن هذا النطاق فالويل لها، فالاتهامات جاهزة ومجانية فإن أبدت تصميماً وقوة قالوا: مسترجلة، وإن اتسمت هذه المرأة بالتفهم والحنان قالوا: ضعيفة يخرج الأمر من يدها!!

خولة:

وتخرج المرأة الشجاعة دائما من بين الحطام فلا أحد يدعوها للخروج، ولكنها تخرج حينما تجد الحطام يخنقها، تذكرت خولة بنت الأزور الأسدي[2] عندما تصفحت كتاب الدكتورة أورزولا شوي أصل الفروق بين الجنسين وهي تؤكد "أن تأثير وسائل الإعلام هو في الحقيقة غير مباشر ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال

(1) إيميل، جان جاك روسو.
(2) خير الدين الزركلي الأعلام الجزء الثاني صفحة: 325.